
محمود الشنواني
أهلا بكين
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET
915
S5

أهلًا بكين



محمود الشنواني



محمود الشنواني/ طبيب أطفال تخرج فى كلية طب القاهرة عام 1981 له كتابات متنوعة غير منشورة، بينها قصص قصيرة ومقالات ثقافية و سياسية؛ شارك فى العمل العام بعد ثورة يناير عام 2011.

....

أهلًا بكين
رحلات
الطبعة الأولى يناير 2015
رقم الإيـــــداع: 2014/26209
الترقيم الدولي: 1-36-5154-977-978

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء التويهي



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

أهلًا بكين

المحتويـات

إهـــداء

الى لمياء..

زوجتي.. حبيبتي

شريكة رحلة الحياة

نسيرها معًا

يدًا بيد، قلبًا بقلب، عقلًا بعقل

محمود



أهلًا بكم

في رحلة سفري إلى بكين، كان في جيب قميصي قلم، مهمته كتابة كارت المغادرة في مطار القاهرة، ثم كارت الوصول في مطار بكين، ثم بعض الخطوط والعلامات في كتاب الإرشاد السياحي الذي حملته معي.. و فقط.

وبعد ثلاثة أيام من التجول، كان قد ازدحم بداخلي عشرات الخواطر والملاحظات والأسئلة والإجابات، زحام يَطنّ ويُلحّ، فأخذت أسير في الشوارع على غير هدًى، لا أبحث عن مشاهدات جديدة، بل أبحث عن دفتر أفرغ فيه هذا الزحام، الذي أصبح يعوق قدرتي على استقبال المزيد.

وعندما أمسكت بالدفتر الفستقي، كأنني حصلت على كنز، وقفت على جانب الطريق وأخذت أكتب ملاحظات وإشارات قصيرة، بعدها أحسست بهدوء داخلي ورجعت عيني تدور من جديد، وبين الحين والآخر، أتوقف لأفتح دفتري وأضيف كلمة أو سطرًا أو سطورًا.

لكن وقتها لم يخطر ببالي أن هذه الكلمات ستتجمع وتترتب، فتصبح كتابًا أجلس لأقول لقارئه العزيز: أهلًا بك.

***

رحلتان قمت بهما حول بكين: رحلة التجول فيها، ورحلة الكتابة عنها.

وفي كلتا الرحلتين، في البداية كان الحذر والتلفت والترقب، ثم الخطو ثم الانطلاق ثم الغوص، ثم تنهيدة عميقة شجية مليئة بالنشوة.

في رحلة السفر وفي رحلة الكتابة، بل في رحلة الحياة، ننسج خيوطًا، نتخيل ما نحن مقبلون عليه، خيال هو خليط من تركيبتنا الذاتية ومما سمعناه أو شاهدناه أو قرأنا عنه.

تركيبتنا الذاتية قد تضيف لهذا النسيج ما ليس فيه، وقد تحذف منه ما لا ترغب في الاحتفاظ به.

وعندما نبدأ رحلتنا الواقعية، نستقبل خيوطًا جديدة بألوان جديدة، ندرك أنه الواقع، مشاهد الطريق في مدينة جديدة نسافر إليها، عقبات التعبير بالكلمات عما نريد الكتابة عنه، آلاف المواقف والبشر الذين يضعون بصماتهم على حياتنا، ونحن ماضون في رحلتنا.

وفي طريق الرحلة، نعدّل خيالنا، يدخله الكثير من الواقع، فنعيد ترتيب أنفسنا، نراها من جديد، ويتجلّى لنا الخليط الذي يولد من جدلية الخيال والواقع.

وفي نهاية الرحلة، يصبح الفصل بين ما تخيلناه وما عشناه وما تخيلنا أننا عشناه وما عبَّرنا عنه بالكتابة حول كل هذا، مهمةً مستحيلة.

* * *

عزيزي القارئ:

ما بين يديك الآن، هو خليطي الشخصي، ومنه ستبدأ رحلتك

الشخصية، ستجلس وتقرأ وتتخيل، تضيف إلى ما تقرؤه وتحذف منه.

وعندما تضع هذا الكتاب جانبًا، سيكون قد تحول بداخلك إلى كتاب جديد، كتابك أنت.

وقد تتحمس لخطوة أخرى في هذه الرحلة، فترتب لنفسك سفرًا إلى بكين، وتتجول فيها كما تجولت أنا، وتعود وقد أصبح بداخلك كتاب جديد، سواء احتفظت به لنفسك، أو عرضت بعض صفحاته على بعض الأصدقاء في جلسة سمر، و قد تقرر أن تضيفه لكتب سابقة على رف مكتبة، ليقرأه قارئ جديد لا تعرفه، فيبدأ به رحلته إلى بكين.

لقد استمتعت حقًّا بهذه الرحلة، متعة المشاعر ومتعة المعرفة، واستمتعت حقًّا بالكتابة عنها، فقد منحتني متعة جديدة لم أكن أتوقعها، وهي تمنحني الآن متعة أخرى مختلفة، إحساسي أنني أنقل كل هذا لإنسان آخر.

عزيزي القارئ: أرجو لك أن تستمتع بقراءة هذا الكتاب، فهو وليد المتعة.

قل: أهلًا بكين.

وستسمع الرد:

أهلًا بك في بكين.

محمود الشنواني
القاهرة - نوفمبر 2014

الفصل الأول

الطائرة

حقيبة ظهر خفيفة، فيها جواز سفري ودولاراتي وأدويتي، وكتاب عنوانه «طريق الصين»، وسندوتشان وزجاجة مياه صغيرة.

أما حقيبتي الكبيرة، الممتلئة بالملابس الخفيفة التي سأحتاجها نهارًا، وبلوفر لنسمة البرد المسائية، وحذاءان رياضيان، والكثير من الكراكيب، التي لا بد أن تزحم حقائبنا في الترحال، وتدعونا لسؤال متكرر عن سبب حملنا لكل هذه الأشياء- فموجودة في بطن الطائرة التي ستقلع إلى بكين في الرحلة رقم 955.

أتسكع في المطار، أدخل محالَّ السوق الحرة، دون أي نية للشراء، أجلس على أحد المقاعد، وأهاتف زوجتي (لمياء)، أخبرها أنني أنهيت إجراءات السفر، فتدعو لي بسلامة الوصول، وتؤكد على ضرورة الاتصال التليفوني عند الهبوط في مطار بكين، وأحادث (شريف) ابني الأصغر، فيوصيني: enjoy.. enjoy.. enjoy.

أفكر أن أحادث (حسام) ابني الأكبر، أو أرسل له رسالة نصية، لكني أتذكر فرق التوقيت، فالساعة الآن العاشرة مساءً في القاهرة، أما في بكين، حيث يعمل، فهي الرابعة فجرًا.

ألبس نظارة القراءة، وأبدأ في قراءة مقدمة كتاب "طريق الصين".. سطور قليلة، وأضعه جانبًا، ليس الآن، فهناك متسع من الوقت في رحلة الساعات العشر، خاصة لمن ليس من عادته أن ينام أثناء السفر.

* * *

تأخرت هذه الرحلة كثيرًا، فعلى مدار العمر، كان يقيني أن في الشرق، بتاريخه وعقائده وروحه، ما هو جدير أن يمنح الإنسان القدرة على نظرة أعمق للحياة وللعالم. حاولت المعرفة، فاقتربت من روح فارس، حافظ الشيرازي وعمر الخيام، وانبهرت بآيات الفنون الفارسية، وابتعدت شرقًا أكثر، فحوّمتُ في سماء الهند المليئة بالطقوس والأساطير، ووضعت صورة غاندي على جدار غرفتي، لكن لم أستطع الاقتراب من الشرق الأبعد الأقصى، شرق الصين واليابان وكمبوديا وإندونيسيا، كان شيء يصدُّني عنه، ويجعلني أستريب في قدرتي على التواصل مع روحه وفكره، ما هذا الحاجز الغامض؟ ومن أين أتى؟.. لا أدري.

آخذ نفسًا عميقًا، وأحس براحة جميلة، فمنذ قررت السفر منذ عدة أسابيع، وكأن هذا الحاجز يتفتت، وأرى روحي وعقلي يتفتحان، وكأني أفرد ذراعيّ، مستعدًا لاستقبال التجربة الصينية.

* * *

آن الأوان للذهاب للصالة التي ندخل منها إلى الطائرة.

في انتظار الطائرة، مررت على الوجوه سريعًا، عدد المصريين لا يصل إلى عشرة أشخاص، والباقون كلهم صينيون، جلست وبدأت أتمعن في الوجوه.. كلهم -تقريبًا- رجال، أعمارهم تتراوح بين الثلاثين والستين،

ولو أن هناك عادةً صعوبة في تقدير عمر الآسيويين.

بدا لي المشهد كمشهد الرجال المصريين، العائدين في إجازاتهم من البلاد العربية، حالة من الإثارة، حركة زائدة، تحدث بصوت مرتفع، إحساس بالانعتاق من العمل، حالة ترقب، الأشياء الصغيرة التي يحملونها في أيديهم، كلها تقريبًا هدايا للأطفال، لا تستطيع انتظار فتح الحقائب في المنزل، يترقبون اللحظة لاحتضان أطفالهم ومفاجأتهم بالهدايا التي وعدوهم بها.

وبدأتُ أدرك ما اعتبرته اكتشافًا.. إنهم ليسوا متشابهي الملامح!!

على مدار العمر، استكنّت الصورة النمطية: الصيني قصير القامة، نحيف، عينه ضيقة مسحوبة، شعره أسود فاحم واقفٌ كالشوك!

وهأنذا أكتشف أن لكل واحد ممن أراهم ملامح مختلفة، مثل كل الناس في كل مكان، ملامح غليظة أو دقيقة، وجه مستدير أو مثلث، أنف نحيف أو ضخم، جبهة عريضة أو ضيقة.

ما أجمل هذا الاكتشاف مع بداية الرحلة، كأنك تكتشف إنسانيتك وإنسانيتهم بإدراك هذا التفرد في كل إنسان، فوقتها تفكر فيه وتتعامل معه كإنسان، وليس كجزء من كتلة بشرية، سترى التنوع الخلّاق فيما يبدو كتلة بشرية، فتحس بثرائها الإنساني، وتحس بخليط جميل ورقيق من المشاعر والأفكار، خليط الإنسانية الرحبة.

* * *

ركبنا الطائرة.. بسرعة تم تقديم الطعام، فنحن في منتصف الليل.

إذا كنت ممن يصعب نومهم أثناء السفر، وإذا كان هذا السفر يمتد

لعشر ساعات، فأنت أمام تحدٍّ حقيقي، كيف سيمر هذا الوقت؟ كيف ستمرِّر هذا الوقت؟

في نصف ساعة فقط، تم تقديم الطعام، حاولت أن آكل على مهل، لكن المضيفة كانت تتقدم لأخذ الصواني الفارغة، والمكان الضيق يدفعني لإعطائها صينيتي حتى تتسع -ولو قليلًا- المسافة التي تفصلني عن ظهر الكرسي الذي يجلس عليه الراكب أمامي.

ظهرت المضيفة من جديد ومعها الشاي والقهوة، لا.. شكرًا، أبحث عن احتمالات النوم، وليس المزيد من اليقظة والانتباه.

لم تمر الساعة الأولى، حتى ساد صمت كبير وإظلام شبه كامل.

بقع الضوء الوحيدة، هي الشاشات المعلقة في المنتصف وعلى الجانبين، في المنتصف يظهر على الشاشة ارتفاع الطائرة، أتسلى بالمتابعة، الارتفاع فوق سطح البحر 28200 قدم، بعد قليل أصبح 29500 قدم، فلأحسب معدل الارتفاع، كم الساعة الآن؟ الواحدة و37 دقيقة بعد منتصف الليل، أنتقل للشاشة الأخرى، عليها مسار الطائرة، السهم ينطلق إلى الشمال الشرقي، نكاد أن نكون فوق قبرص، هل تبدو أي أضواء في هذا الليل عميق الظلمات؟ النافذة مغلقة، أرجع للشاشة الأولى، تحول المقياس إلى الأمتار، نحن الآن على ارتفاع 10300 متر، ودرجة الحرارة في الخارج 32 درجة مئوية تحت الصفر، أعود إلى الشاشة الثانية، السهم يتقدم إلى الأمام، كم الساعة الآن؟ الواحدة و54 دقيقة، لم تَفُتْ إلا 17 دقيقة فقط، كم ارتفعنا في هذه الدقائق؟ أنتظر الرقم على الشاشة الأولى.

تُضجرني الأرقام، فأفتح النور فوقي، ويتقلقل جاري على الكرسي

الملاصق، لكنه لا يستيقظ، أخرج كتاب «طريق الصين» من حقيبتي الصغيرة، أقرا عدة صفحات، فأكتشف أنني لم أقرأ شيئًا. معتاد أنا على النوم في منتصف الليل تمامًا، والساعة الآن الثانية و22 دقيقة، لا أملك العقل الذي أستوعب به ما أقرأ، ولا أملك النوم أيضًا، أغلق النور وأضع الكتاب في الحقيبة.

أشعر باهتزاز مفاجئ، أتلفت حولي، لا شيء تغير، الصمت وضوء الشاشات فقط، أنظر إلى الساعة، الثالثة و57 دقيقة، يا للروعة، لقد نمت، وها هي الساعات تمر، وسهم الطائرة يحلق حول بحر قزوين.

أشعر بالعطش، أضغط على زر استدعاء المضيفة، تمر دقائق قبل أن تأتي، نظرة عينيها تقول إنها كانت نائمة، كوب ماء من فضلك، لا بأس أن تنام المضيفة لكن المهم ألا ينام الطيار ومساعدوه؟!

أفكر أن أتمشى في ممر الطائرة، نصحني صديق مجرّب للرحلات الطويلة بضرورة ذلك، المر ضيق جدًا، وأذرع وسيقان ورءوس نائمة تعترض مساري، لكني أتمشى ببطء، أحرك ساقيّ، وأقف على مشط قدمي، وأثني ركبتيّ.

انقضت نصف المدة، وبدأ نور النهار في كسر الظلام رغم النوافذ المغلقة، الساعة الآن الخامسة و12 دقيقة، كم هي الآن في بكين؟ الحادية عشر و12 دقيقة، هل أغير ساعتي الآن، أم أغيرها عندما أصل هناك؟

يتلقفني من تشتتي طائر النوم الوديع، أغيب في نوم يطفو بي أحيانًا، فأرى ومضات الشاشات، وأسمع شخير المسافرين، ويغطس بي في الأعماق أحيانًا، فأبحر في اللاشيء ويهدأ عقلي ويرتخي جسدي،

ويسمع المسافرون شخيري.

وعندما أستيقظ رائق المزاج، أحس بالإنجاز وأنا أرى أن عقارب الساعة تتجه إلى الثامنة.

تصحو الطائرة، وتبدأ حركات فرد الأذرع والسيقان، والهمهمات وسعال الاستيقاظ، ويظهر المضيفون والمضيفات ومعهم صواني الإفطار.

بجانبي رجل صيني في حوالي الخمسين، تبادلنا ابتسامات خفيفة، ثم غرق كل منّا في عالمه.

قبل الوصول بنحو ساعتين، فتح جاري الصيني النافذة ومضى يتأمل الأرض من تحته، كانت صحارى وجبال، علت وجهه نظرة مست قلبي، وقال بإنجليزية متعثرة: This.....is.....China land.

ورغم تعثر الكلمات، كان في صوته كل التأثر والاعتزاز والحنين لوطنه.

سألته: أين تعمل؟ في مصر؟

فقال: اسماعيلية .. عشر سنوات.

ثم فرد يديه كأنه يريني علامات الخشونة والعمل الشاق.

ازدحم قلبي بالانفعال، وغرقت في أفكاري، حتى حطّت الطائرة في مطار بكين.

* * *

- حساام.

- بابا.

خرجت والعربة عليها حقيبتي العملاقة، تركتها جانبًا واحتضنت حسام، شعور جميل ومُرْبِك.

أن ينتظرك ابنك الشاب في المطار، في بلد غريب، فيعطيك الإحساس بالأمان، تنتظر إرشاداته، وتعتمد على الترتيبات التي جهّزها لك. تدرك وقتها - والسعادة تملأ روحك- أنك كبرت، وأن سنينًا طويلة حرصت فيها على منح ابنك الإحساس بالأمان، وحرصت فيها على عمل الترتيبات اللازمة لحياته، قد أثمرت، وأنه آن لك أن تستمتع بهذا الإحساس الرائع، أن ابنك يرعاك.

ينطلق التاكسي، كباري عديدة، شوارع متسعة نظيفة، لافتات بالصينية والإنجليزية، تشير لأرقام الطرق واتجاهاتها، وعلى الجانبين صفوف من الأشجار تزدان بزهور وردية وحمراء.

نقترب أكثر من أطراف المدينة، تلوح غابة من العمارات الشاهقة، تزداد أعداد المحالّ التجارية وأعداد السيارات، وأعداد السائرين على الأرصفة، أتوقع الزحام، فأنا في بكين، لكن حتى يقف التاكسي أمام الفندق، لا أرى أي زحام.

* * *

يتجول نظري في الفندق، كأن الفنادق -والمطارات أيضًا- في كل مكان عليها أن تأخذ خاتم العولمة، نفس الأجواء واللافتات في كل مكان في العالم، الباب الدوّار، الأرضيات اللامعة، الأنتريهات المتناثرة، أصص

الزرع، لوحات لمناظر طبيعية، إشارات للأماكن والاتجاهات على خلفية نحاسية، موسيقى خفيفة تحلق في الأجواء، دسك الاستقبال والحائط وراءه به ساعات تبين الوقت في عواصم العالم الكبرى.

حتى العاملون تختلف ألوان بشرتهم ولون عيونهم وشعورهم ولكنة ألسنتهم، باختلاف البلد الذي يوجد فيه الفندق أو المطار، لكن دائمًا هناك زي موحد، تغلب عليه الأناقة الرسمية، ودائمًا نفس نوعية الابتسامة المقتضبة، ودائمًا نفس درجة انخفاض الصوت عند الحديث.

يضغط حسام على زر الأسانسير، الدور 19، يفتح الباب.

- نوّرت بكين يا بابا.

أرتمي على السرير، وترتخي العضلات المشدودة من 24 ساعة.

* * *

- عندنا عزومة على العشاء النهاردة.

- مين اللي عازمنا؟

- أصحابي، عايزين يحتفلوا بك، حنتقابل الساعة في مطعم (أم كلثوم).

- أم كلثوم؟!

- إيه؟ غريبة؟! وكمان فيه مطعم "ألف ليلة" و"الرومى".

نزلنا، الجو لطيف، تمشينا حتى المطعم، حوالي ربع ساعة. رصيف عريض للمشاة على جانبي الطريق الذي تنطلق فيه السيارات

والأتوبيسات، وبجانبه طريق رفيع للدراجات.

أشجار صغيرة مزروعة وسط الرصيف، وأشجار عالية تحيط بالطريق، محال متناثرة، أغلبها مطاعم، وعلى البعد تلوح الأبراج العالية، تعلوها أسماء الفنادق وبعض الإعلانات، تومض بألوانها الزاهية.

- أحمد.. إسلام.. مي.. حسام.. لؤي.. نهى.. عالية.. مصطفى.. هاجر.. رفعت.

- أهلا يا شباب.. أنا سعيد بمقابلتكم وباستقبالكم الجميل.

- شكرًا يا عمو.. أهلًا يا أنكل.

ترابيزة طويلة في الساحة أمام المطعم، العشاء شوربة بالشعيرية، وسلطات بابا غنوج وطحينة، وأرز وبطاطس ومشويات، كباب وكفتة وشيش طاووق.

وأم كلثوم تغني.. أمل حياتي.

وكأننا في سهرة في الحسين!

* * *

الصين تصدّر لمصر آلاف السلع، لكن مصر استطاعت أن تصدِّر للصين طاقة هؤلاء الشباب والشابات، يعملون في شركة مقرها مصر، وتعاقدت على مشروع في الصين، عددهم حوالي أربعين، وأعمار أغلبهم بين الخامسة والعشرين والثلاثين.

قلبي سعيد وأنا أرى هؤلاء الشباب والشابات يشقّون طريقهم،

يسافرون إلى بعيد، يحلمون بمستقبلهم ويصنعون مستقبلهم.

وقلبي جزع عليهم وهم في بداية احتكاكهم بالحياة، يواجهون آلة العمل الباردة وقلبها القاسي.

وقلبي فخور بجيل ينطلق إلى الحياة بعزم ومهارة ووعي يتفوق فيه على جيلي ومن سبقه.

و قلبي متفائل، بقدرة هؤلاء الشباب والشابات، على إثبات ذواتهم، والانطلاق بعيدًا وعاليًا في حياتهم.

سهرت معهم سهرة دافئة، تحدثوا عن أحلامهم للمستقبل، عن صعوبات العمل، عن الاختيارات الصعبة التي تواجههم في حياتهم العملية والشخصية، عن تجربة السفر، ورؤية العالم، وعن رؤيتهم لوطنهم، عن آمالهم التي كانت كبيرة مع الثورة، وإحباطاتهم التي تزداد، وحيرتهم إزاء مستقبل الوطن ومستقبلهم في الوطن.

***

بقلب سعيد، ومعدة ممتلئة، وعضلات تبحث عن الراحة.. غرقت في نوم عميق في أول ليالي بكين.

الفصل الثاني

ماو تسي تونج

اليوم الأول .. الانطباعات الأولى وتوجس الخطوات الأولى.. الانطباعات الأولى غالبًا ما تلوّن طعم الرحلة، وغالبًا ما تبقى، فتصبح هي طعم الرحلة بعد أن تتوارى تفاصيلها.

أما توجس الخطوات الأولى، فغالبًا ما ينتهي مع مساء اليوم الأول.

ذهب حسام إلى عمله، لكنه ترك لي هذه الورقة المليئة بالتفاصيل والإرشادات، لتكون بوصلة تحركاتي إلى أن أحس بالألفة مع وسائل المواصلات وعلامات المرور وخريطة المزارات.

قبل الخروج من الفندق، مررت بموظف الاستقبال واستفسرت منه عن رحلات سور الصين العظيم، فقال لي إنه عند عودتي في المساء، سيكون لديه ترتيب مناسب لذلك.

خرجت من الباب وتلفتُّ حولي، نسمة لطيفة وأشجار وردية تتراص في الأفق، سيارات ودراجات متناثرة تشق الهدوء، عجوزان يعبران الطريق.

يا بكين، أنا قادم.. فافتحي لي ذراعيك!

* * *

محطة الأتوبيس على الجانب الآخر من الطريق، أنظر يمينًا ويسارًا عدة مرات، ثم أعبر إلى هناك.

أتوبيس 405 أو أتوبيس 421، الصعود من الباب الأمامي، أتحسس كارنيه المواصلات في جيب قميصي، بجوار السائق صندوق أصفر، أضع عليه الكارنيه فيصدر صفارة، فأدخل. أجد مقعدًا خاليًا على الجانب الأيمن فأجلس، ركاب قليلون ومقاعد عديدة خالية، ثلاث محطات في نفس الطريق، أول محطة، ثاني محطة، ثالث محطة، ثم ينحرف الأتوبيس يسارًا في الطريق العمودي، فأنزل في المحطة الرابعة تمامًا بجوار محطة المترو.

أخطو إلى داخل المحطة.. سلالم كثيرة وردهات واسعة طويلة، إلى الأعماق، في نهاية الردهة طابور قصير، موظفة أمن شابة واقفة أمام بوابة الكشف عن المعادن، وأخرى جالسة أمام الشاشة التي توضح محتويات حقيبتي التي وضعتها على السير، ينتهي الطابور القصير في لحظات، هو أقرب لمنطقة السير فيها ببطء، آخذ حقيبتي وأضع كارنيه المواصلات على ماكينة التذاكر، تصفّر فأدخل، أقف على الرصيف العريض، أخرج ورقة الإرشادات التي كتبها حسام (البرشامة كما أطلقنا عليها) وأراجع اتجاه المترو ومحطاته.

المكان واسع ونظيف ومنظم، شاشات وإرشادات في كل مكان، بالصينية والإنجليزية.

حاجز زجاجي بين الرصيف والقضبان، على الشاشات: القطار القادم بعد دقيقة، والتالي بعد 4 دقائق. تومض الشاشات ويعلن الميكروفون أن المترو على وشك الوصول، يصل فتتفتح أبوابه بالضبط أمام أبواب الحاجز الزجاجي، أدخل، ليس خاليًا لكنه ليس مزدحمًا،

أيضًا الشاشات في كل مكان تعرض تمثيليات وبرامج إرشادية، وتنبه بالصورة والصوت لاتجاه المترو وللمحطة الحالية والمحطة التالية، وفوق الباب سهم مضيء يتحرك تدريجيًا مع حركة المترو، فيوضح أين وصلنا وكم يتبقى لنا.

ما زال أمامي خمس محطات حتى أصل لمحطة شرق تيانمين.

مستوى ملابس الركاب يثير انتباهي، لا أحد يمكن وصف مستوى ملابسه أنها أقل من المتوسط، ودرجة من التأنق ملحوظة بشكل عام، كثيرون منهمكون في متابعة شيء ما في هواتفهم المحمولة: التي هي بلا استثناء حديثة وشاشاتها كبيرة.

أحاول - دون اقتحام - أن أنظر للوجوه والعيون، فتصلني منها حالة عامة من النشاط والاستبشار والمودة الهادئة، لم ألحظ نظرات قاسية أو تقلصات وجه غاضب أو شرودًا حزينًا.

قد لا تكون هذه هي كل الحقيقة، لكنها الجزء الذي رأيته في ساعاتي الأولى، فانفتح باب في قلبي لمحبة هؤلاء الناس والإحساس بالقرب منهم، رغم المساحات الشاسعة التي تفصل بيننا، مع أننا نقف متجاورين في عربة المترو في الخط رقم 10.

* * *

في قلب بكين، ميدان السلام السماوي (تيانمين) الذي تردد على أسماعنا مرتبطًا بأحداث 1989، الذي تفجرت فيه المظاهرات الغاضبة والمناهضة لنظام الحكم. وما زالت في ذاكرة العالم صورة الشاب الصيني الواقف بثبات أمام الدبابة المهولة وهي تتقدم نحوه، ولعل هذه الصورة كانت في مخيلة الشاب المصري الذي وقف بنفس الثبات

أمام عربة الأمن المركزي في ثورة 2011 المصرية.

الميدان فسيح فسيح، مساحته عدة أمثال ميدان التحرير، وفي الميدان ستجد الزعيم المبجّل (ماوتسى تونج)[1] في جوانبه الأربعة.

انظر خلفك، فستجد البوابة الضخمة للمدينة المُحرّمة (القصر الإمبراطوري السابق) وفي وسطها صورة كبيرة لماو، وحولها ترفرف عشرات الأعلام الصينية الحمراء، وفي الاحتفالات الرسمية تبني المنصة الرسمية تحت هذه الصورة، فكأن ماو يطل على الحاضرين، حتى لو تبدلت الوجوه والكلمات والشعارات والسياسات، إلى درجة لم يكن ماو ليتسامح معها.

وانظر إلى يمينك، فستجد قاعة الشعب الكبرى، المكان الرسمي الأكبر لاجتماعات القادة واستقبال كبار الزوار ولانعقاد مؤتمرات الحزب الشيوعي الحاكم.

وانظر إلى يسارك، فستجد المتحف الوطني.

أنزل إلى نفق من أنفاق المشاة، التي تسهّل وتؤمّن تنقل المشاة في الميدان، أمرُّ من بوابات التفتيش (لا تستطيع دخول الميدان والتجول فيه إلا بالعبور من بوابات تفتيش للحقائب، وأيضًا تفتيش ذاتي،

1- ماو تسي تونج (1893- 1976) زعيم الثورة الصينية. ومؤسس جمهورية الصين الاشتراكية الشعبية. ولد في قرية في قلب الصين. وفي صباه تمرد على أسرته وتنقل بين عدة أماكن للدراسة والعمل. شارك في تأسيس الحزب الشيوعي الصيني. وأسس فيما بعد توجهًا داخل الشيوعية عرف بالماوية نسبة إليه. من عناصره الأساسية إيمانه بالقدرة الثورية للفلاحين. وهو ما طبقه عمليًا. وكان سبيله لانتشار أفكاره وتكوين الجيش الأحمر الذي استطاع في 1949 السيطرة على البلاد. وإعلان جمهورية الصين الاشتراكية الشعبية. بعد قيام الثورة قاد البلاد لتحولات ضخمة في السياسة والاقتصاد والفكر. وتوفي عام 1976 وسط جدل بين أجنحة مختلفة في نظام الحكم. حول تقييم ما تم إنجازه وما يجب أن يكون.

ويحدث هذا للآلاف بصرامة ولكن بانسيابية).

وأدخل المتحف الوطني.. في مواجهة المدخل، قاعة كبرى شاهقة الارتفاع، أدخل فيواجهني تمثال ضخم لـ(ماو تسي تونج)، فهي قاعته، على الجدران صور تبرز نضاله ومراحل حياته المختلفة، وأمامها تماثيل أخرى له، وفي المنتصف مجموعة كبيرة من مقتنياته الشخصية وأصول أوراقه التي كتبها عن تاريخه وعن أفكاره، وأيضًا أشعاره التي تغنى فيها بأرض الصين وبشعب الصين.

ويتبقى الجانب الرابع من الميدان، وفيه التقيت بماو شخصيًّا، إنه المدفن الذي لم يوارِه فيه التراب، فيمكنك أن تشاهده محنطًا.

لم يخطر على بالي يومًا أن أقف وجهًا لوجه أمام ماو تسي تونج، ماو العملاق، ببدلته الرمادية الطويلة كثيرة الأزرار وياقتها الملتفة حول العنق، القائد الأسطوري للصين البعيدة، بلد الفلاحين الفقراء، مزارعي الأرز، الذي يعمل على بناء بلد المساواة وتقاسم الرزق القليل لمئات الملايين من البشر.

طابور الزائرين طويل، لا ينتهي، ويتجدد كل لحظة بزوار جدد، يغلب عليه كبار ومتوسطو العمر، يمر باعة الزهور، فيشتري الزهور مَن يبدو من مظهرهم أنهم الأكثر فقرًا.

القاعة مهيبة، الإضاءة خافتة، الهمس يكاد أن يكون مسموعًا، وفي المنتصف يرقد ماو، يظهر الوجه نضرًا، وعلى الخدَّين حمرة الصحة والقوة، ويختفي باقي الجسد تحت العلم الأحمر، الزهور في كل مكان تنثر رائحة زكية في المكان.

بعد يومين من هذا التجوال في رحاب ماو المبجّل، زرتُ منطقة واسعة

تم تخصيصها للفنون الحديثة وللفنانين المعاصرين، الرسم، النحت، الخشب، الزجاج، البورسلين، الفوتوغرافيا.. وفجأة وجدت نفسي أمام تمثالين لم أكن أتخيل احتمال تواجدهما، التمثالان استنساخ لتمثالين شهيرين لماو تسي تونج، في أحدهما يرفع ذراعه بالتحية، وفي الثاني يصفق بوقار، التمثالان كما هما، لكن الغريب أنهما بلا رأس، بدلة ماو وذراعه المرفوعة بثقة ويده المصفقة بوقار، ولكن بلا رأس، وللمفارقة يمكنك أن تشتري نسخة مصغرة من تمثال يستهزئ بماو بورقة نقدية تحمل صورته بكل توقير.

وبين التوقير والاستهزاء، أظن أن الشعب الصيني يتفاوت رأيه ويحتار ويختلف.

قال صديقي: لو لم يكن ماو تسي تونج، لما أمكن أن يوجد دنج زياو بنج[2].

ودنج زياو بنج هو من دشّن في نهاية السبعينات من القرن العشرين، وبُعَيْدَ وفاة ماو، سياسة التحول الاقتصادي، بالابتعاد عن الإجراءات الصارمة للاقتصاد الاشتراكي، في اتجاه العمل بقواعد الاقتصاد الرأسمالية.

صديقي يرى أن هذا التحول لم يكن ممكنًا أن ينجح إلا على قاعدة راسخة من الإنجازات التي حققها ماو، تأكيد الاستقلال الوطني ورفض التبعية، ووضع قاعدة التصنيع الثقيل، وإرساء شبكة الخدمات

2- دنج زياو بنج (1904 - 1992) من رجال الصف الثاني في ظل سيطرة ماو على الحكم. وقد تم اتهامه بالانحراف عن المبادئ الثورية وإبعاده أثناء الثورة الثقافية عام 1966 عاد للصدارة بعد وفاة ماو. وتولى القيادة بين عامي 1978 و1992. تبنى خلالها تحولًا كبيرًا في الاقتصاد الصيني وعلاقته بالاقتصاد العالمي. وشجّع تولي التكنوقراطيين وليس الأيديولوجيين المناصب العليا. وتعتبر السياسة الصينية الحالية تمثيلًا لرؤيته.

الاجتماعية، وإعطاء مواطني الدولة الشاسعة الإحساس بوجود إدارة مركزية قوية، ذات هدف وذات أسلوب.

وهذا الرأي المتوازن يقف بين موقفين متباعدين: جيل قديم من فقراء المدن ومزارعي الريف، غير القادرين على التأقلم مع التحولات الاقتصادية الكبرى التي تركتهم لقسوة العيش في ظل تراجع شبكة الخدمات الاجتماعية، هؤلاء من رأيتهم واقفين في خشوع وحنين وفي أيديهم الزهور التي اقتطعوا ثمنها من رزقهم الشحيح لينثروها تحت أقدام من أحسوا في عهده الحماية والأمان.

وجيل شابّ، آماله وخطواته معلقة بمزيد من الابتعاد عن ماو، هذا الجيل الذي لم أرَ منه أحدًا في الطابور الطويل أمام جثمان ماو المحنط.

ولكن الصين، بثقافتها التي لتوقير الأسلاف ركن أساسي فيها، لا تتصارع بحدّة حول هذا الموضوع، فثقافة الصين الراسخة أن السابقين لهم الاحترام والتوقير، السابقين على المستوى العائلي، والسابقين على مستوى الحكم والقيادة، يمكن أن يختلفوا حول صحة أو خطأ خطوة ما، لكن لا خلاف حول وجوب احترامهم.

هكذا تحترم الصين ماو، وتبتعد عنه في نفس الوقت، ربما بعد جيل أو أكثر سيكون لنظرة الصين لماو دلالة هامة على استيعابهم لهذه التجربة الهامة، وأيضًا على مدى رسوخ عقيدة احترام الأسلاف أمام قيم مخالفة تسود العالم، وتمثل جزءًا هامًّا من تصور الأجيال الشابة لمن سبقوهم ولنظرتهم للتاريخ.

* * *

- إيه أخبار مغامراتك في تيانمين يا بابا؟

- تمام التمام، مستمتع جدًّا، بداية هايلة.

- أنا خلصت شغل، تحب آجي ونكمل اللفة سوا؟

- يبقى جميل جدًّا، نتقابل فين؟

- حأجيلك بعد ساعة عند البوابة اللي بعد عمنا ماو، اتفقنا؟

- اتفقنا.

بعد ساعة كنا معًا، حسام وأنا.

- فيه قريب من هنا منطقة تجارية لطيفة اسمها Wangfujing .. إيه رأيك؟

- إلى Wangfujing.

وصلنا، منطقة لطيفة حقًّا، شارع واسع للمشاة، حوله مبانٍ فائقة الفخامة ومحالٌّ تجارية للماركات العالمية التي تخطف أبصار البشر في كل مكان.

لا وجود للمبجّل (ماو) في هذا المكان.

- متهيألي محتاجين شوية طاقة، إيه رأيك في وجبة خفيفة؟

كان ماكدونالدز يومض، دخلنا، نفس المطعم في كل مكان في العالم، فقط يختلف الزبائن شكلًا، فهل يختلفون موضوعًا؟!

حول الموائد شباب وشابات في مقتبل العمر، تتألق وجوههم بالنشاط والحماس، وتبرز ملابسهم وحقائب اللاب توب بجوار كراسيهم، مدى ارتباطهم بالحياة الحديثة.

ماذا يتحرك بداخل هؤلاء الشباب؟

هل يتصورون مستقبلهم كأبناء للعالم الواسع ولقيم العولمة التي تمت صياغتها في أوربا وأمريكا؟

أم أنهم سعداء بلقائهم بالعالم وقدراتهم المتزايدة، على استخدام أدواته، لكن لهويتهم الصينية مساحة واضحة في وجدانهم. ومما يعطيهم الحماس، إحساسهم أنهم وهم يتطلعون لمستقبلهم الشخصي، يتطلعون أيضًا إلى مستقبل يقدمون فيه وجهًا صينيًّا عصريًّا ومتفوقًا للعالم.

* * *

هل هذه هي أول زيارة لكما لبكين؟

تلفتُّ أنا وحسام.

سيدة أنيقة في حوالي الثلاثين، ترتدي جاكت وجيبة كحلية اللون وتحتها بلوزة بيضاء، وعلى قمة شعرها الحالك السواد قبعة صغيرة كحلية اللون أيضًا، مطوقة بشريط أبيض ينتهي بفيونكة.. الوجه مستدير جميل والكلمات تخرج من شفاه متألقة بلون قرمزي.

- نعم.

كان الرد.

- زيارة للعمل أم للسياحة؟

- بل للسياحة.

- من أي بلد أنتما؟

الأسئلة مباشرة منها، والرد متردد منّا، التوجس سيد الموقف، ماذا يدفع سيدة مثلها لفتح هذا الحوار؟ ماذا وراءها؟

- مصر.

- أووووه!! بلد الأهرامات، نحن أيضًا عندنا آثار عظيمة، لا بد أن تزوروا السور العظيم.

قادني توجسي لأن أقول:

- الحقيقة لقد زرناه من عدة أيام، مكان عظيم حقًّا.

- حسنًا، لكن هناك أشياء أخرى يجب ألَّا تفوتكم، هل زرتم أحد بيوت الشاى؟

سارع حسام لتنبيهى: بابا.. قد يكون هذا فخًا لشيء ما.

غلبتني الرغبة في معرفة ما سيسفر عنه هذا الحديث.

- لا.. لم نر بيتًا للشاي حتى الآن.

- للشاي طقوس خاصة في الصين، فنحن أصل الشاي، هل تودون شرب الشاي في مكان مميز؟

تقابلت عيوننا، حسام وأنا، وتحادثنا بالعربية: لا بأس.. سنرى.

لاحظت السيدة الخبيرة عيوننا، فأشارت إلى مبنى قريب له طراز صيني قديم وقالت:

- مكان محترم وراقٍ، جدير بكما، ليس بعيدًا، وهو بيت الشاي الشهير، Dr. Tea .. تفضلا.

سرنا حتى وصلنا للمدخل، فتح شاب الباب بانحناءة خفيفة، دخلنا: السيدة وأنا وحسام، مناضد وأرائك منخفضة، بعضها به زبائن وبعضها خالٍ، الإضاءة خفيفة، على الجدران لوحات لمشاهد طبيعية، جبال ومساقط مياه وزهور.

- تفضلوا.. تفضلوا.

فتحت لنا فتاة في نحو العشرين بابًا في جانب المدخل، فوجدنا أنفسنا في غرفة صغيرة، منضدة وأريكتان على جانبيها، الخشب سيد المكان، الأثاث والجدران ونفس الإضاءة الخفيفة ولوحات المشاهد الطبيعية.. اختفت السيدة الأنيقة!

وقفت الفتاة ترتدي جيبة وبلوزة سماوية اللون، وعليها مريلة بيضاء موشاة بزهور وردية، ويلف شعرها إيشارب أبيض صغير، به نفس الزهور وردية اللون، وتخرج منه ضفيرة طويلة تمتد بطول ظهرها .. وضعت أمامنا فنجانين صغيرين، وأخذت تتحدث عن أنواع الشاي، وأفضل طرق تحضيره، تركيبة كل نوع وفائدته للجسم والعقل، والوقت المناسب لشربه، ثم تملأ فنجانينا بعينات صغيرة من الأنواع المختلفة.

ثم سألت:

أي نوع هو الأفضل في رأيكما؟ على كل حال يمكنكما أن تجدا كل شيء عند Dr. Tea.

ثم في لحظة فتحت بابًا آخر، فوجدنا أنفسنا في محل تجاري باهر الأضواء، على الأرفف عبوات من كل حجم لكل نوع، وأطقم من الفناجين والصواني، وأصوات عالية، وبيع وشراء.

- الحقيقة أنني لم أحب الشاي، ولا أريد أن أشتري شيئًا.. شكرًا.

فتحولت الابتسامة الخفيفة المصطنعة إلى نظرة قاسية حازمة.. إذا لم تحب أن تشتري من كل الأنواع، فعليك اختيار نوعك المفضل.

- شكرًا.. ربما فيما بعد، نحن نمر من هنا كثيرًا.

- إذا.. إذا لم تحب أن تشرب الشاي، فعليك شراء طقم فناجين، فلدينا تشكيلة واسعة، وهو هدية مميزة لأصدقائك في بلدك.

- شكرًا.. أظن أنني لا أحتاج لطقم فناجين.

- إذن.. فعليك أن تنتهز الفرصة، لأن لدينا عروضًا مخفضة اليوم، ومن الخطأ أن تفوتك.

أحسست بالرغبة في التخلص من الموقف.

- ما هي الأسعار؟

فكأن شريطًا مسجلًا قد فُتح، استمعت بضجر، ابتسم حسام وقال لي:

- لن تستطيع الخروج بدون شراء ولو أي شيء.

أشرت إلى علبة صغيرة:

- سآخذ هذه.

باستنكار قالت:

- فقط؟!

بحسم قلت:

- نعم.

أشارت إلى قرب الباب وقالت:

- الكاشير هناك.

خرجنا وقد ضاع طعم الطقوس القديمة أمام الأرفف اللامعة وتكتكة ماكينة الكاشير التي لا تتوقف.

على الجانب الآخر من الطريق كانت سيدة أنيقة ترتدي ملابس كحلية اللون تتحدث مع مجموعة من الشباب، شعورهم شقراء وعيونهم خضراء.

الفصل الثالث

سور الصين العظيم

جاء صوت أنثوي ناعم:

- مساء الخير.

- مساء الخير.

- مستر الــ. شنو.. واني.

- نعم.

- أنا جومانا.

تعجبت للاتصال، وتعجبت للاسم، وتعجبت لطريقة نطق الاسم.

- أهلا وسهلًا.. جومانا من؟

- ألم تسأل عن رحلة للسور العظيم[3]؟

3- سور الصين العظيم، الإنجاز المعماري الأكبر والأشهر للحضارة الصينية. وهو بناء عسكري متكامل. سور وأبراج للمراقبة وللقتال وثكنات للجنود. بهدف الدفاع عن الإمبراطورية ضد غزوات الشعوب التي تعيش في الشمال. بدأ العمل به في القرن الثالث قبل الميلاد. وتعاقبت على بنائه وتقويته كل الأسر الحاكمة بعد ذلك. يبلغ طوله حوالي 7000 كيلو متر. ويمتد من شرق الصين إلى غربها.

- صحيح.

- أنا مَن سأرافقك في هذه الرحلة، سيسعدني هذا، وأرجو أن يسعدك أيضًا.

تذكرت أنني سألت أحد موظفي الفندق عن ترتيب رحلة لسور الصين العظيم.

- أهلًا بك.

- إذن هل أنت مستعد للرحلة؟ هل يناسبك صباح الغد؟

ليس عندي ارتباطات ولا برنامج محدد.. لا مانع.

- لا مانع.. متى نلتقي؟

- ما رأيك في الثامنة صباحًا؟ نريد أن نبدأ مبكرين، عندي لك برنامج حافل وممتع، نريد أن يكون لدينا الوقت الكافي لذلك.

- حسنًا، نلتقي في بهو الفندق في تمام الثامنة.

وبرقة قالت لي:

- هل تريد أن أوقظك بالتليفون قبلها، في السابعة مثلًا؟

سكتت لحظة، ثم أجبتها:

- لا.. شكرًا، أنا أستيقظ مبكرًا، هلَّا ذكرتِ لي اسمك مرة ثانية؟

ضحكت بانطلاق.

- جو.. مانا، هل تستغرب الاسم؟

- لا.. أبدًا.. هل أنت صينية؟

- نعم صينية، صينية جدًّا!

- إذن إلى الغد، الثامنة صباحًا.

- إلى اللقاء.

- إلى اللقاء

* * *

في كل بلدان العالم ستجد قصورًا ومتاحف، معابد وحدائق، وميادين كبرى، لكن فقط في بكين تستطيع أن تشاهد هذا البناء الأسطوري.

في الثامنة صباحًا أقابل (جومانا) في بهو الفندق، وجومانا هي المرشدة السياحية، لكن هذا ليس اسمها، فكل الصينيين المتعاملين مع أجانب يتخذون أسماء غربية لتسهيل التعامل.

وأجد أمام الفندق سيارة خاصة وسائقا ومرشدة سياحية.. ما هذا العزّ؟! ولكنك تستطيع أن تستمتع بقدر من العزّ وبميزانية متوسطة في الصين.

جومانا، شأن كل المرشدين السياحيين، تلاحقني بسيل من المعلومات عن تاريخ الصين وعن قصة السور العظيم، ولا تنسى أن تذكرني بأهمية المرور على محل الهدايا التذكارية ومحل طقوس شرب الشاي.. أمنحها أذني، أما نظري فيدور على جانبي الطريق، تدهشني جودة واتساع الطرق، وكثرة السيارات الخاصة الحديثة، مزارع

وورش، محال صغيرة ومطاعم كثيرة جدًّا، الكتابة الصينية المتأنقة كالرسم تجذب النظر، لكن تبدو كالألغاز، وتدفع للتساؤل عن كيفية التفاهم بين الصين والعالم بسبب هذا السور العظيم: اللغة الصينية.

ندخل إلى أحضان الجبل، يتلوى الطريق صعودًا، بوابة، مكان انتظار السيارات.. ها هو السور، أو بالأدق جزء من السور الممتد لآلاف الكيلومترات، الذي تعاقبت على بنائه وتقويته وهدمه واختراقه والدفاع به والدفاع عنه، أجيال وأجيال، رمزًا للصراع بين (الهان) العرق الأصلي لمعظم شعب الصين، و(الهون) العرق الأصلي لمعظم القبائل البدوية المحاربة في الشمال، الذي تم بناء السور لمنعها من غزو أراضي الصين المغرية بخيرات الأرض وثروة الإمبراطورية.

أقف على أرضية السور، عرضه نحو خمسة أمتار، وعلى الجانبين حاجزان بارتفاع نحو متر، أنظر إلى أعلى، الثعبان يمتطيه مئات البشر، أرى أظهر بعضهم وهم صاعدون، ووجوه بعضهم وهم نازلون، أرى سلسلة الأبراج المتوالية على مدى البصر، فأقول: حسنًا، لا أطمع في الصعود إلى بعيد، يكفي البرج الأول، أنضم إلى السيل الصاعد، رجال ونساء، شباب وأطفال. تجاورني عجوز، أظنها تخطت السبعين، فأقرر أن أتجاوز البرج الأول، ينطلق حماسي بنشاط الناس حولي، وبالمشاهد الخلابة التي تتكشف لي، وبرغبتي في مشاهدة أوسع وأوسع، من أعلى وأعلى، وعندما أصل إلى أقصى ارتفاع، يدهشني ما صعدته، وأتعجب: لماذا أرتمي منهكًا على أقرب كرسي عندما أصعد إلى شقتي في الدور الثالث؟! وأتساءل عن الحماسة والنشاط الذي يشحن الإنسان بالطاقة في أوقات متعته وبهجته ورغبته في المعرفة!

قد يكون في هذا السور العظيم تلخيص رمزي لقصة علاقة الصين

والعالم، إمبراطورية الصين القديمة، التي هي قلب الصين الحالية، توحدت وأصبحت إمبراطورية شاسعة في القرن الثالث قبل الميلاد، وفي معظم تاريخها اختارت أن تقيم الحواجز، وتكتفي بمساحتها الشاسعة وتعدادها الكبير، وأن تتعامل مع الآخرين، الجيران أو العالم البعيد، بحساب مدروس.

السور العظيم مثّل البناء المادي المعبر عن هذا الاختيار، أما اللغة الصينية، فهي البناء المعنوي، الذي يفصل الصينيين عن الآخرين، ويجعل قلبهم الحقيقي، بعيدا عن فهم العالم، الذي لا يملك مفتاح الدخول.. اللغة

السور الذي أقف عليه الآن، وقف عليه -على مدار التاريخ- ملايين، إذا نظروا عن يسارهم وجدوا جيشهم، وإذا نظروا عن يمينهم وجدوا جيش عدوهم. لكني أقف الآن فأرى عن يميني وعن يساري صينيين في ظل دولة واحدة، كما أرى وجوهًا من كل أنحاء العالم، السور أصبح لا يفصل بينهم، بل يتجمعون حوله وفوقه، يشاهدون أثرًا عظيمًا في تاريخ الصين والعالم، ولم يعد حاجزًا إزاء خروج الصين للعالم، أو دخول العالم للصين.

أما الحاجز الآخر، الأعمق أثرًا، فهو اللغة الصينية، التي حملت تراث الصين وأسرار تركيبتها، فلسفتها، عقائدها، تاريخها، فنونها، آدابها، وسط حروفها -التي تبدو للآخرين كألغاز- يرى الصينيون أعماق وجدانهم، فهل يمكن لأحد غيرهم أن يرى هذه الأعماق؟

الصين الحالية على أعتاب اختيارات كبرى، فنهضتها الحالية قائمة على التبادل التجاري مع العالم على اتساعه، بكل ما يحتاجه هذا من ضرورة وجود لغة مشتركة، وما يستتبعه من إقبال أعداد متزايدة من

الصينيين على تعلم اللغات الأخرى، خاصة الإنجليزية، فقد أصبح هذا طريقًا أساسيًا للصعود في السلم المادي الاجتماعي، وتعلم اللغة يفتح الباب للالتقاء بالعالم، ليس فقط في حدود التعاملات التجارية، بل لمعرفة أوسع بثقافاته وأنماط حياته وقضاياه.

والصين، الدولة التي يصلها ملايين البشر، باحثين عن تعاملات تجارية، تفتح لهم بابًا لدخولها، ولكنها تتحكم في اتساع هذا الباب، بحيث تكون حدوده، التعاملات التجارية.. وفقط.

وعلى جانبي سور الصين العظيم (اللغوى) يتجدد الصراع الآن، ولكن بشكل ناعم، العالم (الغربي) يريد عبور السور إلى داخل الصين، والنفاذ إلى قلبها، وضمها إلى منظومة العولمة التي يتبناها، والصين تفتح في السور منافذ صغيرة لتبادلات تعتمد عليها في نموها، وتمثّل شرعية حكمها الحالي.

كلا الجانبين يعمل لتحقيق مستقبل يشهد تفوق أسلوبه، والعالم يراقب هذه المباراة التي سيكون لها أثر كبير على مستقبله، ويمكن إذا أدّت لخروج صيني أوسع إلى العالم أن تبدأ معها مرحلة جديدة من التاريخ ومفردات جديدة عندما نتحدث عن العولمة.

* * *

وقفت في الساحة بجانب شباك التذاكر، أنظر لساعتي، الثالثة والنصف تمامًا، الموعد والمكان الذي اتفقت مع جومانا على الالتقاء فيه.

رغم أنه منتصف النهار، فالحرارة لطيفة ونسمة هواء متجددة تداعب الوجه، ومشهد الجبال الملونة بأشجارها الخضراء، يتلوى فيها السور الحجري الكبير، الطبيعة في جبروتها وشموخها تبهرني، وقدرة

الإنسان على وضع بصماته عليها تبهرني.

ما زال المئات يتدفقون، حالة من النشاط والبهجة تسود المكان، ملابس وأحذية رياضية، نظارات شمسية، أغطية رأس، وكاميرات.. تأخرت جومانا عن الموعد.. أين ذهبت؟ ماذا لو اختفت؟!!

رأيتها آتية من بعيد، تمشي، تهرول، ورأسها يتلفت.. ممتلئة هي قليلًا، شعرها فاحم السواد، وجهها مستدير متخفٍّ وراء نظارة شمسية عريضة، تلبس بلوزة سماوية اللون وبنطلون جينز ترواكار، حذاءً رياضيًّا خفيفا، وشنطة معلقة بكتفها، تتأرجح مع هرولتها وتلفُّتها.

- آ.. آ.. آسفة جدًّا.

كانت أنفاسها تتلاحق.. ابتسمت لها أنْ لا مشكلة، تركت لها برهة لالتقاط أنفاسها.

- ما رأيك في السور العظيم؟

- يسمونه السور العظيم، إنه عظيم، عظيم جدًّا.

- إنه مثل الأهرام في بلدك، كل بلد له رمز يدل عليه، رمزكم هو الأهرام ورمزنا هو السور العظيم، هل تتفق معى؟

- نعم، ولكني أريد أن أقول أيضًا، إذا كنا نتحدث عن الرموز، فان الرمز الأكبر لا يأتي صدفة ولا يصمد للزمن صدفة، رمزنا الأهرام توحي بالغموض والأساطير والأسرار، كأنها بناء فكري، أما رمزكم فهو بناء عسكري له أغراض عملية، ووراءه الاحساس بالاختلاف والصراع بينكم وبين الآخرين.

أشارت بإبهامها علامة الموافقة والاستحسان:

- فكرة برّاقة مستر شنواني.

ابتسمت وقلت لها:

- عندي فكرة برّاقة ثانية، ما رأيك في تناول الغداء؟ أنا جوعان للغاية وأظنك كذلك.

رفعت نظارتها إلى مفرق شعرها.

- إذن نعود للسيارة، وفي طريق عودتنا هناك مطاعم كثيرة جميلة.

* * *

دخلنا إلى المطعم، متوسط المساحة، تتناثر موائد دائرية في منتصفه، أما على الجانبين فموائد مربعة أو مستطيلة، اخترنا مائدة تطل على المشهد الجبلي.. سألتني بصوت مرح:

- هل تترك لي الاختيار؟

- بالتأكيد، إن هذا أفضل لي، فأنت خبيرة.

- ما رأيك في البط البكيني؟ يجب ألا يفوتك.

- لا أحب طعم البط، لكن يبدو أن ما تقولينه صحيح، يجب ألا يفوتني، فأنا في بكين.

جاء المضيف، تحدثت جومانا معه كثيرًا، ودوّن ما طلبته في دفتر وانصرف.

- تتحدثين الإنجليزية بانطلاق يا جومانا، لم يصادفني هذا كثيرًا

هنا.

- الإنجليزية أصبحت المفتاح الأساسي لي ولكثيرين من جيلي، اللغة مهمة جدًّا، لكن يبدو أننا كصينيين ما زلنا متأخرين في هذا المجال، على أي حال هذا في مصلحتي، فالإنجليزية فتحت لي أبوابًا كثيرة؛ لأن المنافسة ما زالت غير صعبة.

- أكيد، فهي هامة جدًّا في عملك.

- تقصد الإرشاد السياحى؟

وواصلتْ:

- لكنه ليس عملي.

تعجبت:

- ما هو عملك إذن؟

نظرت إلى الجبل حيث يبدو الطريق الصاعد إلى السور العظيم، والأتوبيسات والسيارات سلسلة متجهة إلى الأعالى:

- أنا مدرسة تاريخ، وحتى سبع سنوات مضت كنت أعمل في مدرسة في مدينة صغيرة بالقرب من بكين، ومع اقتراب دورة الألعاب الأولمبية سنة 2008، طلبت الحكومة من كل من يعرف لغات أجنبية أن يتقدم للمشاركة في أعمال الدورة، وهكذا فاللغة الإنجليزية التي كانت هوايتي مذ الصغر، والتي لم يكن لها أي دور في عملي السابق، أصبحت خطوة البداية لحياة جديدة.

وبعد كوب من الماء تابعت:

- حياة جديدة باسْم جديد، جومانا هو الاسم الذي اتخذته وقتها لتسهيل المعاملات مع الأجانب، الذين يحتارون إزاء الأسماء الصينية الغريبة على آذانهم.

- يبدو لي أن أولمبياد بكين 2008، حدث هام للحياة هنا.

- أكيد، لسنوات قبلها كان الحديث في الإعلام ونشاط الحزب والمشروعات التي نراها أو نسمع عنها، طرق وفنادق وخطوط مترو وإنشاءات جديدة وترميمات للمزارات السياحية، كل هذا كان استعدادًا للأولمبياد.

- بالطبع، الاستعداد للأولمبياد ليس فقط استعدادًا لاستضافة ألعاب رياضية، بل لاستضافة العالم والوقوف تحت عيون كاميراته.

- البلد كله كان في حالة استنفار وترقب، بلدنا منذ سنوات وهو مقصد مهم لرجال الأعمال، ولكن ضيوف الأولمبياد مختلفين، إنهم كل أنواع البشر، من كل مكان ومن كل الأعمار، لم نتعود على هذا، لهذا كنّا قلقين من قدرتنا على التعامل معهم، من الصورة التي سيروننا بها، وأيضًا من طبيعتهم المختلفة، فمجتمعنا له طبيعة خاصة منذ قديم، لنا أفكارنا وعقائدنا وأسلوب حياتنا وأسلوب نظام دولتنا، ولا نريد أن يقتحم العالم عالمنا.

- ألم يسعدك هذا يا جومانا؟

- أسعدني جدًّا، واستفدت منه جدًّا، لولاه لما كنت معك الآن، لولاه لما كنت أكسب الآن في أسبوع أكثر مما كنت أكسبه في شهر من خلال عملي كمدرسة تاريخ.

- أنت الآن لست مدرسة تاريخ، وتقولين أيضًا إنك لست مرشدة سياحية، ما عملك إذن؟

ابتسمت وقالت:

- تجدني ومن مثلي حولك وحول من مثلك، عملي أن أساعد كل من يأتي للعمل أو السياحة، وأدواتي هي لغتي الإنجليزية وما تدربت عليه من مهارات السكرتارية، وأتمتع أيضًا بميزة إضافية وهي دراستي للتاريخ.

- لا أفهمك تمامًا يا جومانا.

- مستر شنواني، أي إنسان يأتي إلى بكين، في عمل أو سياحة يحتاج لمن يرشده ويسهل حركته، أين وماذا يأكل؟ أين يبدل عملته الأجنبية؟ أين يجد أماكن مناسبة للتسوق؟ كيف يرفّه عن نفسه؟ يعني مرافق طول الوقت. إذا كان يتعامل مع شركة صينية، فالشركة تكلفني بهذه المهمة، أما إذا كان مثلك تسأل في فندقك عمن يساعدك، فيتصل بي الموظف فأتصل بك وأقوم بالمهمة.

- أظنك مختلفة وسط مجتمعك يا جومانا.

مالت برأسها للخلف:

- جدًّا.. جدًّا.

* * *

جاء المضيف ووضع في وسط المائدة إناءً كبيرًا عميقًا، تفوح رائحته بالدسم وتتصاعد منه الأبخرة.. غاب لحظات ثم عاد ومعه أطباق

صغيرة بيضاوية فيها شرائح صغيرة من لحم البط، وضعها في دائرة حول الإناء الساخن (عرفت أن البطة الواحدة يتم تقطيعها إلى نحو 120 شريحة صغيرة).

تذكرت المشهد الفخم للبطة المحمّرة على المائدة في ولائمنا، فأحسست أن رونق البط قد ذهب بتقطيعه إلى شرائح صغيرة مثل التي أمامي.

ثم وضع أمام كل منّا إناءً عميقًا صغيرًا وطبقًا مسطحًا كبيرًا وآخر متوسط المقاس، وعلى جانبي المائدة زجاجات صغيرة، ثم أحضر طقمًا من العصيان الصينيية الشهيرة.

حدثته جومانا، فانحنى ثم ذهب وعاد ومعه طقم من ملعقة كبيرة وشوكة وسكينة.

نظرت لي وقالت:

- إذا كنت في بكين فعليك بالبط البكيني، وعليك أيضًا بمحاولة الأكل كما نأكل، حاول لكن لديك البديل، فلا تقلق.

مددت يدي للبدء في تناول الطعام، فأشارت لي جومانا أن أنتظر.

عاد المضيف من جديد ومعه طبقان فيهما شرائح من الخبز، وعدة أطباق من شرائح الخيار والبصل.

أدركت أن في الصين من المهم أن يكون لك مرشد صيني.

رأت جومانا حيرتي المتوقعة، فمالت للأمام وقالت:

- دعني أساعدك.

أمسكت بعصا الطعام وأشارت لي:

- حاول أن تتعامل معها كأنها أصابعك.

ومضت بخفّة تضع قطعًا من الخيار والبصل على الخبز، ثم تلتقط شرائح من لحم البط وتضعه فوقه، ثم أخذت تضيف صوص الصويا قبل أن تطبق الخبز على محتوياته، وضعته في طبقها، ثم وضعت طبقها أمامي وأخذت طبقي.

- جهزت لك الطبق الأول، لكن عليك أن تكررها بنفسك.

أكلت بشهية، كان الطعام جميلًا فعلًا.. حاولت أن أجهز لنفسي طبقًا جديدًا بنفس طريقتها، ففشلت كل محاولاتي، فقالت لي:

- لا بأس.. نحن نحب أن يرتاح ضيوفنا، من فضلك تناول طعامك بالطريقة التي تريحك.

خلال تناول الطعام كنت أسأل نفسي: ماذا ستفعل جومانا مع الشوربة وكيف ستتعامل معها بعصاها؟ وكانت إجابتها أن وضعت بعضًا مما في الإناء الكبير في إنائها، ثم رفعته بيديها، واختفى وجهها خلف الطبق وهي ترتشف منه مباشرة!

ونحن نغادر المطعم قالت لي:

- ما رايك في البط البكيني مستر شنواني؟

- لذيذ.. لذيذ جدًّا.

خطت بخفة نحو السيارة.

-- بكين جميلة، يمكنك أن تقضي فيها وقتًا ممتعًا، خاصة إذا كنت

هنا للسياحة، ولست مرتبطًا بعمل واجتماعات.

أخذت السيارة تشق طريقها عائدة إلى الفندق.

عند الفندق، أخرجت محفظتي وأعطيت جومانا ما اتفقنا عليه من أجر الرحلة، فأخرجت كارتًا شخصيًّا من حقيبتها وأعطته لي:

- مستر شنواني، أرجو أن تكون راضيًا عن رحلة اليوم، هذا رقم تليفوني، يمكنك الاتصال بي مباشرة وليس من خلال الفندق، ما زال هناك الكثير لتفعله خلال رحلتك.

الفصل الرابع

معبد السماء

استيقظت اليوم سعيدًا، ووجدت نفسي أدندن بمزاج رائق، تناولت إفطاري سعيدًا، ارتديت ملابسي سعيدًا.. لا أدري هل كانت السعادة واضحة لمن يراني، لكني رأيت وجوه الناس مبتسمة لي، الزوجان اللذان قابلتهما في المصعد، والشاب الذي يتناول إفطاره في المنضدة المقابلة، وسائق التاكسي الواقف أمام الفندق، والسيدة الواقفة إلى جواري في الأتوبيس.

وفي طريق عودتي في المساء، ابتسم لي سائق الأتوبيس، وتلقيت نظرة ودودة من بائعة الآيس كريم وكذلك من بائع السوبر ماركت، وبادلني الرجل الهندي الذي التقيته على باب الفندق انحناءة مرحبة.

استيقظت سعيدًا، وقضيت يومي سعيدًا، وعدت إلى الفندق سعيدًا.

اليوم كنت في معبد السماء.

* * *

نزلت من الأتوبيس، ظهري للطريق والأتوبيسات والسيارات والعمارات والمحال التجارية والمطاعم، ووجهي لمعبد السماء.

وفي الساحة التي تفصلني عن بوابة الدخول المزركشة، كنت واحدًا من مئات يزحفون للمدخل وأعينهم إلى السماء، ففي السماء عشرات الطيارات الورقية، تتموج، تتراقص، تداعب النسيم ويداعبها، تنطلق إلى السماء البعيدة، وتنطلق معها عشرات الخيوط التي تمسكها عشرات الأيدي، ومئات العيون.

في بلادنا، هذه الطيارات الورقية هي لعبة الصغار، أما في الصين فهي لعبة الكبار، بل لعبة العجائز، فأغلب الأيدي الممسكة بالطيارات المحلقة إلى أعلى، أيدي عجوز مكرمشة، والأعين المتعلقة بها تحيطها تجاعيد السنين. ما أبهج أن يبتهج العجائز، وتطل من وجوههم بسمات طفولية، وتدبدب أرجلهم في شقاوة، ويتصايحون ويتنافسون!

كل هذه البهجة السماوية وأنا لم أدخل بعد من بوابة معبد السماء، فكيف هي البهجة التي تنتظرني بداخله؟

فلأفتح نوافذ قلبي للنسيم!

***

في عام 1420، وفي قمة مجد أسرة مينج (1368-1644)، قرر الإمبراطور (يونج لي)، ابن السماء، أن يبني معبد السماء. كان بناء القصر الإمبراطوري الرسمي الفخم الشاسع، الذي أطلق عليه «المدينة المُحرّمة» على وشك الانتهاء، ليكون مقرًّا لمعيشة وحكم الإمبراطور.

ولكن كان لا بد لابن السماء أن يعطي السماء قدرها وحقها، فقرر أن يبني هذا المعبد، شاسع شاسع المساحة، فمساحته تعادل أربعة أمثال قصر الحكم المنيف، ولأنه يجمع بين أهل الأرض وقوى السماء؛ فهو يبدأ بإطار مربع رمزًا للأرض كما هي مربعة في تراث أهل الصين،

وينتهي عند قمته بالإطار الدائري الذي يمثل السماء الدائرية كما هي في خيالهم.

وعلى محور جنوبي- شمالي، أُنشئت المباني التي ستتم فيها طقوس ضراعة ابن السماء للسماء، مع كل خريف، سائلًا إياها المطر الغزير والمحصول الوفير، والخير والرفاهية للبلاد.

وعلى الجانبين غُرست الأشجار، ونُسقت الحدائق، وزُرعت أنواع الزهور، في مساحات لا يدرك النظر آخرها، للاسترخاء، والتأمل، والبهجة، وللالتصاق بأُمِّنا الأرض وهي تتواصل مع السماء، فنتواصل ونتحد، ونصعد إلى الآفاق العليا.

* * *

وارتدت آلة الزمن إلى الخلف.. العام هو 1557، وهو العام التاسع من حكم إمبراطورنا المعظم، سليل أسرة منج العريقة، وأنا على وشك السير في أول موكب إمبراطوري، بعد أن التحقت بالحاشية، كاتبًا لرسائل ابن السماء!

قلبي يرتجف، منذ سنوات صباي في نانكينج، أدرك أبواي الفقيران أن قدراتي يمكن أن تفتح الأبواب لي ولأسرتنا، فالتحقت بمدرسة الدراسات الكونفوشية.

سنوات وسنوات وأنا أدرس على أيدي أساتذة أجلاء، وأحفظ وأدوِّن كتب التراث، وفي كل سنة أسال أساتذتي: هل يمكنني أن أخوض الامتحان؟ فتكون الإجابة: أنت على الطريق، داوم على الدراسة والاجتهاد.

وبعد سبع سنوات، خضت الامتحان الشاق، ونجحت، وتم تعييني كاتبًا في إدارة المقاطعة، وأصبحت -بفخر كبير- فردًا في إدارة إمبراطوريتنا العظمى، التي لا ينضم إليها إلا كل صاحب كفاءة وإخلاص.

ولأن طموحي كبير؛ فقد داومت على الدراسة، وطلبت الانضمام لكلية الدراسات الكونفوشية في بكين، وتعمقت أكثر في دراستي سنوات وسنوات، واشتهرت بين زملائي بجمال الأسلوب ودقة التعبير وفن الكتابة، فرشحني أحد أساتذتي الموقّرين للعمل كاتبًا في القصر الإمبراطوري.

وفي شهور خدمتي في القصر، لم أحْظَ بمقابلة ابن السماء، بل كانت تصلني أوامره فأصوغها في رسائل، تعود إليه ليضع عليها خاتمه، ثم ينطلق بها الفرسان إلى الأراضي البعيدة.

أما اليوم، فأنا في معيَّة الإمبراطور، وسأبقى بالقرب منه لثلاثة أيام، هي التي سيقضيها، ومعه حاشيته وكبار الرجال، في معبد السماء، يذبح الأضاحي، ويبتهل للسماء، وقد يعنُّ له أن يصدر قرارًا، أو يبعث برسالة، فعليَّ أن أكون قريبًا، وأنا سعيد ووَجِل لهذا القرب الخطير.

وانطلق الموكب، أيضًا لم أحْظَ برؤية ابن السماء، فبيني وبينه الأسرة الإمبراطورية، وكبار رجال الحاشية، والفرسان والحرس يحيطون بالموكب. أما حملة الأعلام ففي المقدمة، ووراءهم حملة الطبول، يدقون عليها، إعلانًا واحتفالًا بانتقال موكب الإمبراطور من قصر الحكم إلى معبد السماء.

وخلف الموكب مئات من الخدم والقصّابين والطهاة، ومعهم مئات

من الأضاحي، بقر وخراف وخنازير و...

خلّفنا وراءنا القصر المنيف، ومررنا بالأسواق وأكواخ العامة، واتخذنا الطريق الإمبراطوري، وسط المزارع، التي تنتظر ابتهالات ابن السماء حتى تهطل السماء بالخيرات والمحصول الوفير.

تراءى لنا المعبد الجليل محاطًا بسور بديع، فعبرنا بوابة المدخل، وعندها توقف معظم رجال الموكب ومعهم الأضاحي في ساحة المدخل، واستمر الموكب، الإمبراطور وأسرته، وبعض الخاصّة من حاشيته، وحرسه الخاص، وقلة من الموظفين، أنا منهم، واتجه إلى «قصر الصيام» حيث سيقضي ليلته، وبعدها تبدأ الطقوس.

وعندما اقترب الموكب الصغير من القصر، التفت ابن السماء يتأمل الأشجار، فرأيت وجهه المتألق بالقوة والشموخ والعظمة، وأدركت أن هذا القرب قد يصعد بي إلى قمة المجد، وقد يقذف بي إلى غياهب السجن.

قصر الصيام صغير وبسيط وأنيق، تفصله عن مباني المعبد، غابة الأشجار التي زرعها الأجداد، وخندق مائي تعلوه قنطرة رخامية، فكأنه جزيرة صغرى في بحر الأشجار الواسع، وهو قصر الإمبراطور لليلة واحدة، ليلة الصيام، فحتى ترضى السماء عن ابنها الإمبراطوري، عليه أن يصوم ليلة تقديم الأضاحي لها، ويتضرع لها صائمًا.

دق الناقوس النحاسي الكبير الموجود عند المدخل، مرحبًا بالقادم الجليل، عبر الإمبراطور والحاشية المقربة، انتظرنا في الخارج قليلًا حتى يستقر الكبار في قاعاتهم، ثم أدخلونا، نحن بعض صغار الموظفين إلى غرف جانبية، هبط الظلام وامتلأت السماء بالنجوم.

ومرت ساعة، بدا فيها الصمت والسلام شاملًا، وأخذ النعاس يداعب جفوني، لكن الأوامر لم تصلنا بتغيير ملابسنا، وهذا معناه أن الإمبراطور لم يخلد للنوم بعد.

وفجأة، بدأت دقات طبول خفيفة، ثم تعالى الصخب تدريجيًّا بالأصوات المرحة ونبرات الأوتار، تسلل نظري للخارج، فرأيت مجموعة كبيرة من الراقصات يتأهبن لدخول القاعة الكبرى، وتتسلل إلى أنفي رائحة شواء زكية.

ابتسمت وتعجبت : إننا في «قصر الصيام»، وأطبقت فمي خوفًا من تعليق طائش قد يكلفني عنقي.

في الصباح، وقف الجميع في ساحة فناء الأضاحي، كان المشهد مهيبًا، الحاشية مصطفون، الفرسان على خيولهم، الحرس على الجوانب الأربعة للفناء الرحيب، الخدم والقصّابون والطهاة ممسكون بالأضاحي في الخلف، وفي الوسط المدرج الرخامي الدائري، ثلاثة مستويات، وبين كل مستوى والتالي سلم من تسع درجات، فالـ(9) رقم إمبراطوري مميز، وهو قمة الأرقام.

الكل في انتظار الإمبراطور، الذي هلّت أعلامه وطبوله وأبواقه، ثم هلّ بردائه الذهبي، ومضى يصعد السلم، تسع درجات وراء تسع درجات، حتى وصل إلى السطح العلوي وأطلق الإشارة.. فبدأت الأضاحي تتهاوى تحت سكاكين القصّابين، وسالت الدماء، وتطلعت الأعين للسماء، وبدأت الموسيقى والابتهالات، وعلى القمة، ابن السماء، رافعًا يديه، يدعو ويدعو ويدعو، بدت السماء صافية تسبح فيها نتف من سحب بيضاء، تمنى الجمع أن تتكاثر السحب وتتلبد وترسل للأرض ولو قطرات تبشر بالاستجابة.

لكن السماء، بقيت صافية، لا بأس، لم يعكر هذا صفو أحد، فما زال للطقوس بقية، وما زال هناك الطريق الذي سيسلكه ابن السماء من فناء الأضاحي حتى قاعة المعبد الكبرى في الشمال، وما زالت السماء تنتظر مزيدًا من التضرع، وتبخل عن الاستجابة، تستمتع بالأيدي المرفوعة بتوسل، وبسيل الدماء الذي يخضب الأرض.

انطلقت الأبواق من جديد، وفتح الحرس البوابة التي يبدأ عندها الطريق إلى قاعة المعبد الكبرى، تراءى لنا حمَلة الأعلام وهم يعبرون البوابة.

انحنى كل من في ساحة الأضاحي، ومضت دقائق طويلة وأنا وكل من حولي مطرقون إلى الأرض. ناوشني الفضول أن أتطلع لأرى ما يدور من حولي، ولكن حكايات سمعتها خلال مدة خدمتي في القصر جعلتني أنحني أكثر وأكثر، وأصبحت أذني هي وسيلة معرفتي بما يدور. جلجل صوت بوق، ارتفعت دقّات الطبول، تلفتُّ وأنا مُنْحَنٍ فرأيت من حولي يرفعون رءوسهم ويقفون ويشدّون قاماتهم.

كانت البوابة مغلقة، ولكن أعلام ابن السماء تظهر وهي تبتعد عنّا في اتجاه القاعة الكبرى، التي بدت من بعيد متألقة ببنائها الدائري الفريد.

وعندما أحاطت أعلام ابن السماء بالقاعة الكبرى، وابتعدت أصوات الأبواق والطبول، أحسست برذاذ يرطب وجهي، تطلعت للسماء، لم أرَ أي سحب، لكني متأكد من نداوة الرذاذ، ومتأكد من الرجفة التي انتابتني.

* * *

ودارت آلة الزمان إلى الأمام، 2014.. الطائرات الورقية تحلق فوق رأسي، وقلبي يحلّق فوقها، أتعجب من هذا الانسجام النفسي الشامل الذي دخلت في دائرته عندما وصلت إلى هذه المدينة، مدفوعًا في البداية، فقط بالرغبة في الفرجة، وقضاء إجازة طيبة، والالتقاء بابني الذي أوحشني، فإذا بي أحبها وأستعذب تفاصيلها، ولا أحس بالغربة فيها، رغم أن كل المظاهر تشي بالغربة.

هل بداخلي أثر من جدٍّ قديم نشأ فيها وارتحل على طريق الحرير، وتوقف في محطاته حتى وصل إلى مصر فاستقر فيها؟

هل كان هذا الجد البعيد كاتبًا في بلاط ابن السماء، تم تكليفه بنقل رسالة، قادته إلى قصر مملوكي في القاهرة، فوقع في هوى إحدى جميلاته، فزرع شجرة في أرضها، تعمقت جذورها وامتدت فروعها لتصل إلى القرن الحادي والعشرين؟

وأتيت أنا بعد أجيال، لا أعلم بوجود هذا الجد البعيد، حتى هبطت على أرض ميلاده ونشأته، فانبعث بداخلي ما كان مخفيًّا؟

دخلت ومضيت في أثر خطوات المحتفلين في المعبد، فتجولت في فناء الأضاحي، وأخذت أعد درجات السلم التسع، كما هو مكتوب في كتاب الإرشاد السياحي الذي أحمله، ووقفت أمام جدار صدى الصوت، الذي يقول الكتاب إن زواياه وخامات بنائه مصنوعة بحيث إنك إذا همست بكلمة عند جداره، سيسمعها بوضوح من يقف في الناحية الأخرى من الدائرة، ولكن هيهات أن تستطيع اختبار صحة هذا القول! فالمئات يلتصقون بالجدار ويهمسون ويصيحون ويضحكون، ويسيرون حولك في كل مكان.

ووصلت إلى مبنى المعبد الرئيسي، وأخذت أتأمل الزخارف البديعة على جدرانه، وجمال بنائه الدائري، وقبّته التي تتجمع منحنياتها في الوسط، وتنطلق إلى أعلى، كأنها تطمح للوصول للسماء.

ودخلت المعبد الجميل، ورأيت أعمدته السامقة الحمراء الداكنة، تصنع دائرة من الركائز تصل إلى السقف العالي، الذي تظهر زخارفه من وراء غلالة من الضوء الشفيف الذي يتسلل إلى الداخل.

بهرني المعمار المحكم والنقوش البديعة وروح التاريخ، فقلت في نفسي: ما أجمل هذا اليوم!

لكن جمالًا أعمق وأرقّ كان ينتظر روحي بعد أن خرجت إلى حديقة المعبد.

* * *

الحديقة مزدانة بالخضرة، الأشجار الظليلة والممرات التي تحيطها، الأزهار الملونة، والساحات الصغيرة التي تم تجهيزها بالمقاعد وأكشاك المرطبات.. والحديقة مزدانة أكثر بهذا الكرنفال الشعبي جميل الروح، أطفال يتقافزون في مرح، أسر صغيرة، شاب وشابة في مقتبل العمر، طفل يجري بجانب الأب، وجنين يتنسم الجمال في بطن الأم، عجائز يمشون على مهل، أزواج تمتد عشرتهم لأكثر من نصف قرن، ومجموعات لعلها من دور الرعاية الاجتماعية، صبيان وبنات تتفتح مشاعرهم وسط الطبيعة الحانية.

حالة من البهجة تنساب في الأرجاء، مع موسيقى لا أعلم مصدرها، رائقة هادئة، وتصحبك في كل مكان من الحديقة الشاسعة.

في إحدى الساحات، مجموعة من عشرات الرجال والنساء، وحتى بعض العجائز الذين لا تدري كيف انبعث من داخلهم هذا النشاط. يقفون في صفوف، هناك قائدة، يتمايل جذعها، وتمد يدًا لأعلى والأخرى لأسفل في إيقاعٍ بطيء، وجهها مبتسم راضٍ، وكل المجموعة تتبعها.

يثبت الجميع لحظة، ثم يعاودون الحركة، يستديرون، يمدون ساقًا إلى اليمين، تتلوى أذرعهم كأنها تعزف موسيقى يسمعونها بداخلهم.

إنها الـ Tai Chi.

والـ Tai Chi، ليست اسمًا لرياضة، ولكنها تعبير حركي يمثل فلسفة في الحياة، فمعناها بالصينية: المطلق العظيم، ومن يمارسها فهو يعبر بجسده عن فحوى هذه الفلسفة، التي تؤمن أن المطلق العظيم يتوحد بداخله ما يبدو ظاهرًا من تناقضات: النور والظلام، الخير والشر، الحركة والسكون، فكأن حركة الجسد في الـ Tai Chi، يتناوب فيها الجسد الواحد نوبات الحركة والسكون، تعبيرًا عن هذه الرؤية للحياة.

ما أعمق الشرق!

في الغرب، التعامل مع الجسد في التمارين الرياضية، كأنه تجهيز وإعداد وتقوية له من أجل الصراع مع الحياة.

أما في الشرق، فاليوجا الهندية أو التاي تشي الصينية، كأن حركة الجسد هدفها فهم الإنسان لنفسه وللكون، من خلال فهمه لأداته في التعامل مع هذا الكون.. جسده.

ترددت لدقائق، لكني أخيرًا خطوت، وقفت في الطرف، عيني على

قائدة المجموعة، تمد يدها فأمد يدي، تثني ساقها فأثني ساقي، تميل إلى اليسار فأميل إلى اليسار، تتوقف فأتوقف.

سعادة بداخلي، لكني أيضًا أدرك أنني حركت جسدي، لكن بيني وبين روح التاي تشي مسافة بعيدة.

جلست أستريح، ظهري إلى جذع شجرة عمرها مئات السنين، شهدت صعود وسقوط أباطرة، تألقت بكين فيها بالمجد، وانتكست بالهزائم، في ظلها حِيكت مؤامرات، وهبط وحي الشعر على كتّاب، وتبودلت قبلات مُختلسة.

قال عنها هنري كيسنجر: قد تستطيع الولايات المتحدة أن تبني بناء مطابقًا لمعبد السماء، لكننا لن نستطيع أن تكون لنا حديقة كهذه، أشجارها تعمرها من مئات السنين.

وهأنذا أجلس في ظلها، أستمع لموسيقى تأتيني من حيث لا أدري، من السماعات المنتشرة في أرجاء الحديقة، أم من داخلي؟!

نهضت وأخذت أتمشى، فكأن قدميَّ قادتني كالمغناطيس إلى مصدر الموسيقى التي كنت أسمعها في ظل الشجرة العجوز المورقة.

ثلاثة عازفين، الأول يمسك بآلة كالدف، والثاني آلته عبارة عن أنابيب معدنية ينفخ فيها فكأن طيورًا محبوسة تنطلق، أما الثالث فأمامه آلة كأنها آلة القانون، لكنها مقسمة إلى ثلاثة أجزاء، وفي يده عصا رقيقة، في نهايتها ما يبدو أنه ريشة دقيقة لونها وردي.. الرجل عجوز، يعزف كأنه منفصل عما حوله، منفصل حتى عن زملائه في العزف.

استمعت من قبل لموسيقى صينية وأنا أحاول تذوق الموسيقات

المختلفة في برنامج "من موسيقى الشعوب" في إذاعة البرنامج الموسيقي. ولم أستطع أن أحسها، ووجدت إيقاعها رتيبًا.

ماذا حدث، وأنا أستمع لنفس الموسيقى في حديقة معبد السماء، فأجدها متناغمة مع من يعزفها، متناغمة مع الملتفين في الدائرة الواسعة يستمعون إليها في صمت، متناغمة مع الأشجار العجوز حولنا، متناغمة مع بنيان المعبد الذي يلوح في الأفق؟!

إنه لفارق مهول عن سماعي لها من الراديو في منزلي في القاهرة.

صفقت للعازفين في حرارة.. انصرفت دائرة المستمعين، وبقيت في موضعي كأني أستبقي نفسي في وسط الذبذبات التي لم تتلاشَ بعد.

لمحني العازف العجوز، تلقيت منه نظرة حانية، كلمني بالصينية، فأبديت عدم قدرتي على الرد، أدرك أنني لا أفهم كلماته.. ضمّ قبضتي يديه وانحنى يحييني، فانحنيت مثله.. اعتدل أمام آلته ومضى يمسها بريشته الوردية الرقيقة، فانسابت اللمسات الموسيقية من جديد، هذه المرة تحية خاصة لي.

عجزنا، العازف العجوز وأنا عن تبادل الكلمات، لكن تبادلنا أصل الكلمات، إحساس الأصوات والأنغام.

***

هبط المغيب على المعبد والحديقة، أخذت خطواتي خارجًا من معبد السماء.. صاعدًا إلى السماء.

الفصل الخامس

تيانجين.. مدينة الانكسار والانتصار

وانطلق القطار إلى تيانجين Tian Jin.

"انطلق" هذه المرة، ليست مجرد وصف اعتدنا استخدامه لوصف حركة القطار، لكنه انطلق حقًّا؛ لأنه كالطلقة، إنه القطار الطلقة.

بعد دقائق قليلة من التسارع، وصلت سرعة القطار، كما نراها على الشاشة، إلى 286 كم/ساعة، وهكذا وصلنا إلى تيانجين التي تبعد عن بكين بـ120 كيلومترًا، في 35 دقيقة فقط.

تذكرت عبارة قرأتها: ستستطيع السفر حول العالم في ثلاث ساعات، ساعة بالطائرة حول العالم، وساعتين للوصول من منزلك إلى المطار!!

وهذا ما حدث بالفعل، فمسافة الخمسة عشر كيلومترًا التي تفصل فندقنا عن محطة قطارات جنوب بكين، استغرقت نحو الساعة، أما المسافة من محطة المترو المجاورة لمحطة القطارات، والتي سرنا فيها ردهات طويلة، وصعدنا سلالم وسلالم، حتى لو كان بعضها متحركًا، ثم السير داخل محطة القطارات نفسها، بمحلاتها التجارية ومطاعمها، وساحات الانتظار، فقد استغرقت حوالي عشرين دقيقة،

وبعدها انتظرنا نحو خمس عشرة دقيقة، انتظرناها في صف المسافرين، نتقدم خطوة خطوة نحو الموظفتين الأنيقتين المبتسمتين في صرامة، تنظر كل منهما إلى التذكرة وإلى جواز السفر (أو بطاقة الهوية بالنسبة للصينيين)، ثم تتطلع للوجه للتأكد، وتبتسم ابتسامة رسمية، فنعبر البوابة وينقلنا سلم إلى الرصيف، ثم إلى عربتنا في القطار، إلى كراسينا في العربة، نستقر في القطار الأنيق، في انتظار الانطلاق.

أنت حر في السفر، لكن.. إذا أردت السفر، فعليك حجز تذكرة، وعندما تحجز التذكرة سيتم طباعة رقم جواز سفرك أو هويتك عليها، فهي تذكرتك ولا يستطيع آخر أن يستخدمها، وسيكون معروفًا أنك سافرت إلى المكان الفلاني في الساعة الفلانية؛ فقد يحتاج شخص ما، جهة ما، لمعرفة متى ذهبت وإلى أين ذهبت. ظِلُّ الأخ الأكبر يخيّم في لطف على المشهد.

* * *

خرجنا -حسام وأنا- من محطة القطارات في تيانجين، لحظة جميلة ومليئة بالانتعاش عندما تستقبل عيناك مدينة جديدة، رأينا على مرمى البصر كوبري يصل بين ضفتي النهر الذي يسري في قلب المدينة.. وقفنا على الكوبري نستطلع ما سنتجول فيه.

المشهد مميز، على جانبي النهر مباشرة، مبانٍ لا تَمُتُّ بصلة للعمارة الصينية، تذكرك بفندق سميراميس القديم (رحمه الله)، بفندق كاتراكت في أسوان، بمباني هيئة قناة السويس في الإسماعيلية وبور سعيد، بمبنى السفارة الإنجليزية في القاهرة (قصر الدوبارة).

وهذه المباني كأنها سلسلة ممدودة على طول الشاطئ، أما خلفها

فتطل الأبراج العملاقة والأوناش العملاقة التي تبني المزيد والمزيد من الأبراج العملاقة (العلامة المميزة للنهضة الاقتصادية الصينية الحديثة).

كأن هذا المشهد يلخّص تاريخ هذه المدينة، ففيه مشاهد مؤثرة في تاريخ الصين الحديث، وفيه جراح أصابت قلوب الصينيين، فأوجدت العزم الحديدي على بناء الاستقلالية والقوة في الصين المعاصرة. وهو تاريخ يستحق أن يُروَى.

* * *

• إباحة وتشريع تجارة الأفيون.

• فتح مواني جديدة للتجارة مع المستعمرات الأجنبية.

• السيطرة الأجنبية على الجمارك وتحديد التعريفة الجمركية.

• تدفع الصين تعويضًا عن خسائر الحرب.

• السماح للقوى الأجنبية بنقل العمالة الصينية للعمل على أراضيها وفي مستعمراتها.

هذه بعض بنود الإذعان التي تم فرضها على الصين في معاهدة تيانجين (1860) بعد هزيمتها في حرب الأفيون الثانية.

وهي تبرز الحالة المهينة التي وصلت إليها الصين، ومثلت ما يطلق عليه الصينيون قرن المذلّة، وهو القرن الذي بدأ مع حرب الأفيون

الأولى[4] (1839 -1842) ثم الثانية[5] (1856 -1858) وما تلاها من احتلال ياباني لمساحات شاسعة من الأراضي الصينية، وانتهى قرن المذلّة بصوت ماو تسي تونج وهو يعلن في ميدان تيانمين في بكين، قيام جمهورية الصين الاشتراكية الشعبية في أكتوبر 1949.

وكانت تيانجين شاهدة أساسية على هذه المذلّة، فهذه المدينة التي كانت دائما مزدهرة بصناعاتها وتجارتها، بحكم موقعها الرائع على نهر (هاي هو) الذي يصلها بخليج (يو هاى)، فالبحر الأصفر، حملت المعاهدة المهينة اسمها وعنوانها، واختارها المستعمرون لتكون قاعدة لهم، لقواتهم ولرعاياهم.

في ذلك الزمن، كان هناك احتفال استعماري صاخب لأكل اللحم الصيني، تشارك فيه استعماريو القرن التاسع عشر العتاة: البريطانيون- الفرنسيون- الألمان- الطليان- الروس- النمساويون- اليابانيون- البلجيك. وهؤلاء هم من أنشأوا هذه المباني الأنيقة على شاطئ نهر هاي هو، ليقيموا فيها ويقيم قادتهم وأسرهم ورعايا إمبراطورياتهم.

4- حرب الأفيون الأولى (1839- 1842) جاءت ضمن التوجه الاستعماري للدول الصناعية الكبرى في أوربا وخاصة بريطانيا. رغبة في مد النفوذ وفتح أسواق جديدة لمنتجاتها. سميت بهذا الاسم (الأفيون)؛ لأن شرارتها اندلعت بسبب منع السلطات الصينية لتجارة الأفيون التي يسيطر عليها البريطانيون من خلال شركة الهند الشرقية البريطانية . واعتبرت بريطانيا هذا المنع إخلالًا بمبدأ التجارة الحرة. فقامت بحصار بحري ثم احتلال لبعض المدن الصينية. مما أدى لرضوخ الإمبراطور الصيني لشروطها.

5- حرب الأفيون الثانية (1856- 1858) حاولت الصين التهرب من التعهدات التي أجبرت عليها بعد حرب الأفيون الأولى. وأرادت القوى الاستعمارية الأوروبية أن تحقق نصرًا حاسمًا في فرض إرادتها على الإمبراطورية التي كانت في إحدى مراحل ضعفها. فقامت بحملة عسكرية أكثر سفورًا. انتهت بمعاهدة تيانجين التي أذعنت فيها الإمبراطورية الصينية لكافة الشروط الاستعمارية.

وأظن أن الصيني المعاصر عندما ينظر إلى ذات المشهد الذي نراه الآن، حسام وأنا، سيتراءى له هذا الماضي بآلامه وجراحه، لكنه سرعان ما سيتعافى جرحه وهو يرى تيانجين مدينته الصينية، تستعيد قوتها ونشاطها التاريخي، وتحتل آفاق المدينة، ولا يتبقى في المشهد إلا هذا الشريط الضيق على شاطئ النهر، الذي حولته الصين إلى مزارات سياحية يأتي إليها الناس، للمتعة إذا أرادوا، ولاستخلاص عبرة التاريخ أيضًا إذا أرادوا.

* * *

كنت في اليومين الماضيين أراقب حسام وأراقب شاشة اللاب توب وأتعجب من هذا العالم الذي قضيت معظم عمري دونه، وجاء منذ سنوات ليجعلني مذهولًا من اتساع نطاق المعرفة واتساع وسائل الحصول عليها، كان حسام بمساعدة العم Google يرسم خطة يومنا في تيانجين.

سنقف قبل بداية الكوبري بحوالي 100 متر، وننتظر أتوبيس رقم 306، وسعر تذكرته 2 يوان، وبعد ركوبنا سيعبر بنا الكوبري ثم ينحرف يسارًا، وبعدها بحوالي 300 متر سيقف في أول محطة، ثم ينزل في نفق، وعندما نخرج منه سيكون إلى يميننا مركز تجاري، وبعده مباشرة سيتجه الأتوبيس يمينًا ويتوقف في المحطة الثانية، وبعد مسافة قصيرة حوالي 50 مترًا سينحرف يسارًا وستكون إلى يميننا حديقة كبيرة، ثم يعبر ميدانًا به نافورة، بعده ستكون المحطة الثالثة التي سننزل فيها.

وهكذا حددنا كل خطوات اليوم.. شيء مذهل.

قبل السفر، وضعنا خطتنا وقررنا أن نسير في تيانجين كما سار التاريخ.

* * *

فندق Astor، وعلى المدخل لافتة نحاسية لامعة: 1860.. ندخل من الباب الخشبي الدوّار، ونعود في الزمان 150 عامًا إلى الوراء، الخشب البني الغامق في كل مكان، الأرضيات، الأبواب، جرامافون في الركن، حجرة الشطرنج، الكراسي العالية المبطنة بالجلد الفاخر، السلم الداخلي الذي يئزّ تحت أقدام الصاعدين والهابطين، البيانو.. الهمس.. الصمت.

تبقّى أن تشم رائحة دخان لسيجار، وأن تتسمع لكلمات هامسة بين ساسة دهاة، أو تلتقط عينيك نظرات خفية متبادلة بين الضابط الوسيم الشاب والسيدة الأنيقة زوجة الدبلوماسي العتيد.

وعلى الجدران عشرات الصور، ساسة في بدل أنيقة، عسكريون مزهوون بما يملكون من أسباب القوة، سيدات من الطبقة العليا بقبعاتهن ومرواح اليد في أيديهن المرصعة بالأساور والخواتم اللامعة، وعلى الجدران كروت وخطابات، بالإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية، أرسلها من أقام في الفندق يحكي فيها عن هذه البلاد العجيبة، أو وصلت إلى من أقام في الفندق، من آخرين على بعد آلاف الكيلومترات، في بلاد لا يمتُّ نمط الحياة فيها بصلة لنمط الحياة في الصين، ولكن Astor Hotel كان الجزيرة التي يعيش فيها السادة الأوروبيون حياتهم بنمطها وتفاصيلها، حتى لا تجرح الغربة قلوبهم المرهفة.

* * *

خرجنا من الأضواء الخافتة والألوان الوقورة للقرن التاسع عشر، إلى أضواء النهار الباهرة، تمشينا في الحديقة الجميلة المجاورة للفندق.

هذه المدينة جميلة جدًّا، متأنقة ومزهوّة بنفسها.. إلى المحطة التالية.. قصر الخزف ، وبها نخطو نصف قرن في التاريخ ونصل إلى بدايات القرن العشرين.

منذ حوالي مئة عام، قرر ثري صيني مولع بالخزف، أن يجمع آلاف القطع من الفازات والأطباق، بل شظايا أطقم المائدة، ليصنع منها ديكور هذا القصر الباهر.. القصر كله بأسواره ومبناه وجدرانه وأسقفه وسلاله وشرفاته وحديقته، بل ودورات المياه فيه، مرصع بآيات فن الخزف الصيني الجميل.. الخزف، هذا الفن المراوغ، الخامة في منتهى الصلابة والمنتج في منتهى الرقة، إذا لمسته سَرَتْ في جسدك برودة، وإذا نظرت إليه وقد تلألأت شمعة في جوفه أو سقط شعاع ضوء على سطحه امتلأت روحك بالدفء!

***

ثم قفزنا في الزمان قرنًا كاملًا، بدايات القرن الحادي والعشرين، الصين تنفض المذلّة والمهانة، وشأن الأمم العظيمة، تستعيد -إذا أرادت- أمجادها القديمة، أخذت في صبر ودأب وتصميم تقيم بناءها المتهدم خطوة خطوة، عشرات السنين ومئات الملايين من الصينيين، والبناء يترسخ، ثم يعلو ويعلو، والعقيدة تترسخ، لن نكون ضعفاء بعد اليوم، لن نقع في المذلّة بعد اليوم، لن نذعن لشروط ظالمة يفرضها علينا أحد بعد اليوم، سنبني دولتنا القوية.

أرادت تيانجين أن تضع نفسها في مصافّ مدن العالم الكبرى،

وقادها الطموح لبناء هذه العجلة الدوّارة الكبيرة، التي ننتظر دورنا في ركوبها والنظر من أعلاها للمدينة الكبيرة.

لم تستطع أن تتفوق على London Eye الشهيرة في الارتفاع، فهي تعلو فقط إلى 120 مترًا، أما عجلة لندن الدوّارة فارتفاعها 160 مترًا، لكن تيانجين استطاعت تحقيق إنجاز أكثر جمالًا ، فعجلتها الدوّارة مقامة فوق كوبري.

المنظر بالفعل فريد وأخاذ، نهر هاي هو، وعلى ضفتيه مباني المدينة الأنيقة والكباري في مرمى البصر، والعجلة الدوارة كأنها كائن عملاق يقف في مجرى النهر.

* * *

- جعت يا حسام؟

- مش قوي، مش لازم نأكل، عايزين نبقى خفاف، قدامنا تمشية طويلة زي الخطة اللي اتفقنا عليها ما بتقول.

- يبقى نأكل حاجة خفيفة، ونشرب حاجة ساقعة وننطلق.

بحثنا حولنا، طريق الكورنيش، على الجانب الآخر من الطريق محال تجارية، عبرنا الطريق ووجدنا أنفسنا أمام مطعم (ماركو بولو)[6].

6- ماركو بولو (1254- 1324) تاجر ومستكشف إيطالي، ذهب إلى الصين في منتصف القرن الثالث عشر مع والده وعمه، عندما كانت تحت الاحتلال المغولي. استمرت إقامته فيها تحت رعاية وحفاوة قبلاي خان، حفيد جنكيز خان، حوالي 17 سنة. بعد عودته روى عن رحلته وإقامته، فسجلها صديق له وظهرت تحت عنوان «رحلات ماركو بولو». فكانت بداية اهتمام أوروبي عام بالصين وحضارتها، وإدراك أن في هذه البلاد البعيدة حضارة تعادل -وربما تتفوق- على الحضارة الأوربية. لهذا فليس غريبًا أن يكون هناك مطعم يحمل اسمه، وأن يقدم هذا المطعم مأكولات إيطالية ومأكولات صينية.

- نودلز وللا مكرونة؟

- هأ هأ.. فيه صراع على الريادة في هذا العالم، هل الأصل هنا في الصين وللا في إيطاليا؟

- مش عارف، ممكن يكون في الاثنين بشكل منفصل، زي الورق هل هو اختراع مصري أم صيني؟ ممكن يكون الاثنين بشكل منفصل، أظن ماركو بولو شخصيًا هو أقدر إنسان على الإجابة عن السؤال.

دخلنا، القائمة فيها كل أنواع النودلز / المكرونة بأشكالها وإضافاتها، طلب حسام مكرونة بالصوص الأبيض والمشروم، وطلبت أنا نودلز بالجمبري، وطلبنا عصير فراولة وكيوي.

على الحائط خريطة كبيرة للعالم، لكنها لا تشبه الخريطة التي تعودنا على رؤيتها في كتبنا وعلى جدران مدارسنا.

عندنا، خريطة العالم أقصاها من ناحية الشرق اليابان والصين، ومن ناحية الغرب الشاطئ الغربي للأمريكتين المطل على المحيط الهادي، وفي الوسط الشرق الأوسط وأوربا.. أما الخريطة في المطعم الصيني، ففي أقصاها من ناحية الشرق الشاطئ الشرقي للأمريكتين المطل على المحيط الأطلسي، ومن ناحية الغرب الجزر البريطانية والشاطئ الغربي لأوروبا وإفريقيا، وفي الوسط تقع الصين.

الأرض كروية، والكرة ليس فيها نقطة بداية ولا نقطة نهاية، لكنَّ كلًّا منّا يحب أن يبدو في وسطها، مركزًا لها، تدور حوله أحداث التاريخ بحكم الجغرافيا.

تمامًا مثلما أراد الإنسان للأرض التي يعيش عليها أن تكون مركزًا

للكون، وكانت صدمته كبيرة ومقاومته عنيفة لفكرة أنها مجرد كوكب يدور حول الشمس، وأن المجموعة الشمسية مجرد جزء ضئيل في الكون الواسع.

التفتت إلى اللافتة المكتوب عليها (ماركو بولو) وقلت: شكراً يا رحّالة

وقال حسام: نفسي يبقى جنب الفندق مطعم اسمه (ابن بطوطة).

سألته: انت لسه جعان ولا إيه؟

فرد: دلوقتى لأ، لكن كل يوم وأنا راجع من الشغل يبقى نفسي في أكلة شرقى، ولازم أركب مواصلات علشان أوصل للمطاعم الشرقية.

* * *

تجددت الطاقة وانتعشنا.. انكسرت حدّة الحر، وأصبح الجو ألطف، وضوء الشمس الذي يظهر بين الحين والآخر من خلف الأبراج العملاقة أصبح أرقّ.

محظوظة هي المدن التي تمر في وسطها الأنهار، أو بالأحرَى المدن التي نشأت بجوار الأنهار وفي رعايتها.. وجميلة وذكية وراقية هي المدن التي تحترم أنهارها وتحترم سكان مدن أنهارها؛ فالنهر يحب الناس والناس يحبون النهر، وإدارات المدن الحصيفة لديها فرصة اللقاء اليومي الحميم بين الناس ونهرهم، فتقوم بكل ما تستطيع به ليكون هذا اللقاء أسهل وأجمل.

وتيانجين جميلة وذكية وراقية؛ لهذا فالسير بجوار نهرها متعة يتشارك فيها الآلاف، الذين رأيناهم ينعمون بما تعطيهم إياهم مدينتهم من متعة محبة النهر، وهي المتعة التي منحتنا إياها أيضًا،

نحن زائريها.

هناك مستويان للكورنيش، مستوى ممشى يجاور النهر تمامًا، ويكاد أن يكون في منسوبه، وعلى هذا الممشى وكل بضعة عشرات من الأمتار، تجد شخصًا أو مجموعة متجاورة، تمسك بسنارة أو شباك صغيرة، ينتظرون رزق النهر، ورزق النهر أسماك، ولكنه أيضًا سلاحف، سلاحف صغيرة يضعها الصياد في طبق بلاستيكي بجواره، وحولها حلقة من المشترين، ويبدو أن المساومة حامية.

للسلاحف في الصين شأن عظيم، فعمرها الطويل يستدعي الهيبة والاحترام، ويستدعي التساؤل عن هذه القدرة على البقاء، وفي معابد الصين وفي قصورها، رأيت العشرات، بل أكثر، ربما المئات من تماثيل في هيئة سلحفاة ضخمة، لتخليد شخصية عظيمة، ولأنها عظيمة فهي مثل السلاحف، معمرة بأعمالها الخالدة، وبدرع ظهرها الذي يحمل في هذه التماثيل عمودًا طويلًا، يسجل عليه الأعمال التي قام بها هذا الشخص العظيم، واستحق بها أن يتم تخليده في صورة سلحفاة.

وعلى نفس الممشى مساحة مغطاة بالرمل وعليها أدشاش للمياه، وعشرات الأشخاص يسبحون ويلعبون الكرة الطائرة (الغريب أن كلهم عجائز)، وكانت حالة المرح والصخب واللعب الطفولي الذي يمارسونه تبعث على السعادة.

أما المستوى الثاني فهو أعلى، وعلى مستوى طريق السيارات رصيف عريض به أحواض زهور وممر للدراجات.. أسر عديدة، أطفال يمرحون، أرائك تطل على النهر بمشهده الفاتن، واللنشات تسبح فيه رافعة أعلامها، والكباري تلوح في الأفق، وعجلة تيانجين الدوّارة الكبيرة، عملاق يطل على الناظرين، وصفوف ناطحات السحاب

التي يتفنن المعماريون في أشكالها ومواد واجهاتها، مراجيح وعربات صغيرة للآيس كريم والفشار والعصائر والنقانق المشوية.

وفي بعض الأماكن يتقابل المستويان، الملامس للنهر والمرتفع عنه، في منحدر متدرج به أحواض رائعة من الزهور ومسطحات من النجيل، في وسطها نخيل متألق، وكذلك في منحدرات مبلطة، تجتذب الصبية والشباب للتزلج عليها بزلاجاتهم أو بدراجاتهم.

* * *

تتوارى الشمس، وتخفت انعكاساتها على صفحة النهر وعلى واجهات العمارات الشاهقة، وعلى النخيل والزهور، وعلى وجوه الناس، وتتجمل المدينة بسلسلة ذهبية من الأضواء على طول الشاطئ ووسط المزروعات.. وقفنا نتطلع إلى الآفاق المبهجة، ثم استدرنا، ظهرنا للنهر وأقدامنا تقودنا إلى محطة السكك الحديدية.

شكرا يا تيانجين على هذا اليوم البهيج.

دخلنا المحطة في انتظار طلقة جديدة تعود بنا إلى بكين في 35 دقيقة.

الفصل السادس
المدينة المُحرّمة

منذ حوالي ثلاثين عامًا شاهدت فيلم «الإمبراطور الأخير»، وهو يحكي عن آخر إمبراطور صيني، الطفل «هسوان تونج» ذي الأعوام الثلاثة، الذي اشتهر فيما بعد باسم (هنري بو يى) والذي كان الإمبراطور الأخير في سلسلة طويلة، بدأت بالقوة والمجد وانتهت بالضعف والمذلة وعدم القدرة على تحديث البلاد ولا دفع القوى الاستعمارية عنها.

في الفيلم، كان الإمبراطور الطفل يركض في ملابسه الصفراء الملوكية، يجلس على المِحَفَّة المحمولة على أعناق الخدم، تتقدمه الأبواق ويسجد أمامه الحاضرون، في مروره الكريم بين مباني المدينة المُحرّمة المتألقة بالعظمة والفخامة.

وهأنذا على أبواب المدينة المُحرّمة، أدخلها -أنا المصري سليل الطبقة المتوسطة- بتذكرة، بعد أن دفعت 60 يوانًا مرسومًا عليها صورة (ما وتسي تونج) الفلاح الصيني الذي كانت هذه المدينة الأسطورية محرّمة عليه.

تذكرة للتجول في المدينة التي لم تعد محرّمة، المدينة التي أنشأها في بداية القرن الخامس عشر أباطرة أسرة (منج) و التي كان دخولها محرّمًا على غير الأسرة الإمبراطورية وحاشيتها وحرسها وخدمها.

ذهب أباطرة أسرة (منج)، وجاء أباطرة أسرة (تشينج) وذهبوا أيضًا، وبعد خمسة قرون على إنشائها، أصبحت أبوابها مفتوحة للتجول في القاعات، تتمشى في قاعة العرش وفي قاعة استقبال السفراء، وتشاهد السرير الذي شهد مغامرات سلسلة من الأباطرة مع زوجاتهم ومحظياتهم، ويمكنك أيضًا أن تشاهد تيجانًا ومجوهرات اعتلت رءوسًا وطوقت أعناقًا، لم يكن أحد يجرؤ حتى على مجرد التطلع إليها!

أفواج وأفواج، أسر تحمل أطفالها بملابسهم المزركشة الجميلة، شباب وشابات، مجموعة من العجائز، يتجولون في المدينة المُحرّمة التي أصبحت مستباحة.

* * *

إذا أطلت روح الإمبراطور (يونج لي) الذي عاش في القرن الخامس عشر، أو الإمبراطور (تشيين لونج) الذي عاش في القرن الثامن عشر، فستتعجب من المشهد وستصدر أوامر إمبراطورية لن يطيعها أحد بطرد هؤلاء العوام من القصر الجليل.

أما اذا أطلت روح الإمبراطور الأخير (هسوان تونج) فلن تتعجب، فقد عاش طفولته في هذا القصر، لكنه شهد سقوط عرشه، وشاهد أصحاب الملابس الرمادية الفقيرة وهم يتجولون في القصر بينما هو يباشر عمله كبستاني في الحديقة المجاورة في أواخر عمره.

أما روح ماو تسي تونج، فستسعد وهي ترى هذه الآلاف من أبناء الشعب تجلس في قاعة العرش، لكنها ستتعجب وهي ترى فروعًا لمقهى ستاربكس أو مطعم كنتاكي وهي مليئة بزوار القصر.

* * *

إذا دخلت من البوابة الجنوبية للقصر، المطلة على ميدان تيانمين، فاعلم أن أمامك 960 مترًا حتى تصل إلى البوابة الشمالية، ستصعد وتهبط خلالها مئات الدرجات من السلالم الرخامية، لتدخل قاعات كبرى وأجنحة وغرفًا، ومتاحف جانبية تضم كنوز الأباطرة وتعرض ملابس الملوك والملكات، وتستعرض تاريخ القصر وتاريخ جهود المحافظة على كنوزه.

وسيتاح لك أن تستريح في الحدائق التي تتوسط المباني، أو أن تجلس على السلالم التي لا تنتهي، تتأمل هذه الغابة المعمارية المذهلة (حوالي 800 مبنى) التي تلوح في الأفق وكأن أسقفها موجات تعلو موجات.

سيجذبك لونان: اللون الأصفر الإمبراطوري، وهو إمبراطوري؛ لأنه كان -مثل المدينة التي تزورها الآن- محرّمًا استخدامه على الآخرين، فالإمبراطور فقط ينفرد به. أما اللون الثاني فهو الأحمر، وهو عند الصينيين لون الحظ والنجاح، فكيف لا تتلون جدران المباني الإمبراطورية به؟! وستجد ألوانًا أخرى تلون الزخارف والرسوم، أكثرها وضوحًا الأخضر والأزرق.

وأمام القاعات الكبرى ستجد أمامك تمثالين لأسدين، هما حارسا القاعة، أما التنين -وهو أيضًا امتياز إمبراطوري- فستجده مرسومًا على الجدران، وستجد رأسه منحوتًا على الأفاريز، وستجده واقفًا على جوانب أسطح المباني، يشع بالقوة والعظمة الإمبراطورية.

وسترى أيضًا على جانبي كل مبنى قِدْرين كبيرتين من البرونز مملوءتين بالماء، فالماء ضروري؛ لأن هذا الكنز من المباني التي تراها على مدى البصر، كلها من الخشب ولا شيء إلا الخشب، فهل تتخيل الحال لو حدث حريق، وهو ما حدث فعلًا على مدار التاريخ، بفعل

اضطرابات الغضب الشعبي أو مؤامرات القصور أو انتقام القوى الاستعمارية المحتلة.

وبعد حوالي أربع ساعات من الانبهار بالعظمة والتعجب لتقلبات الزمن، ومن تأمل الأسقف المائلة في رشاقة والتماثيل الموحية بالأساطير والزخرفات المشعة بأناقة الجمال، أصل إلى البوابة الشمالية، وأترك المدينة التي لم تعد محرّمة ورائي.

* * *

Hutong.... Hutong .... Hutong

عند البوابة الشمالية للقصر الإمبراطوري، وأيضًا في كل الأماكن السياحية، ستجد من يلوّح بيديه ويقول: Hutong..hutong، وهذا هو ما يطلق على منطقة أو مناطق أزقّة بكين القديمة.

فحتى يكون هناك إمبراطور يعيش في مدينته المُحرّمة الشاسعة، لا بد أن يوجد مئات الآلاف، بل ملايين، يعيشون في الأزقّة والحواري الصغيرة.

بعد مساومة –لا بد منها– تجد نفسك في "كارتّة"، شيء مثل الحنطور، يتسع المقعد لشخصين وتجره "بسكلتة" يقودها شاب أو عجوز صيني، كما فعل أجيال من أجداده، لكن الجديد أن البسكلتة –أحيانا– يتم تركيب موتور كهربائي عليها فتسير أسرع، ولكنها لا تنطلق بقوة ولا تزمجر، فتتيح لك فرصة فرجة لطيفة على ما حولك.

وستجد نفسك في بكين الأخرى. عفوًا.. ليست الأخرى، فأنت –صديقي الزائر– تسكن في فندق وتتجول في شوارع ومزارات بكين

الأخرى، أما هذه الأزقَّة فهي بكين الأولى الأصليّة.

تتوه في شبكة هائلة من الأزقَّة، لكن حتى الأزقّة بعضها أصلي وبعضها غير ذلك، الأزقّة الغير أصلية تم تغييرها من أجلك - صديقي الزائر- حتى تستمتع فيها بأجواء قديمة، وتتخيل أنك رجعت قرنًا أو قرنين في الزمان، آتيًا من بلاد بعيدة إلى أرض الصين الغامضة، تتنقل بالكارتّة وتتمشى وسط الحوانيت، فتدخل حانوتًا مليئًا بأجولة الأعشاب، فتمتلئ بالأمل في وجود عشب لم تسمع به من قبل، لعلاج آلام المعدة التي فشلت فيها الأدوية الحديثة في بلدك. ثم تدخل حانوتًا آخر فتجد عجوزًا جالسًا في صبر، ينحت قطعة من حجر اليشم الأخضر، الذي تتميز به الصين، وبعدها ستجد من ينحني لك ويدعوك لدخول بيت الشاي، فتجلس وتأتي فتاة كأن الزمن القديم قد انشقّ فخرجت منه، فتحدثك عن سحر الشاي الصيني، تستغرب الطعم وتتصنع الاستحسان.

ولكن، لأنك في القرن الحادي والعشرين، ولأنك في الصين الحديثة، التي تصنّع وتصدّر للعالم كل شيء تقريبًا، فستهاجمك المحلات الحديثة بسيل البضائع التي أنتجتها المصانع العملاقة، وليس أيدي الحرفيين المهرة، ستجد أن حوانيت الأعشاب أو بيوت الشاي أو ورش نحت اليشم، تائهة وسط عشرات المحلات التي تتخذ من الأزقة القديمة ديكورًا لطيفًا لمنتجاتها الحديثة.

* * *

أبتعد عن صخب الأزقّة التي تم توسيعها لتصبح ممرات تجارية، تهدأ حُمَّى البيع والشراء، وأجد نفسي في زقاق متعرج، على الجانبين بيوت فقيرة، شبابيك صغيرة تطل على الزقاق، أبواب مفتوحة تؤدي

لأزقّة أصغر، وأبواب أخرى تنفتح على أفنية صغيرة، بعضها يزدان بأشجار ترتفع أغصانها فوق المباني القصيرة، أطفال يتقافزون ويجرون حفاة الأقدام عبر الزقاق من بيت لآخر، عجوز تطل بتجاعيدها الغائرة على الزقاق، الذي شاهد طفولتها وشبابها، رجل أنهكه الحر في المنزل الضيق فجلس على عتبته خالعًا فانلته الداخلية.

أزقّة بكين، أزقّة القاهرة، أزقّة دمشق، أزقّة أصفهان، أزقّة مراكش، الأزقّة التي تشع منها روح المدن القديمة، ويعيش فيها أهلها الذين توارثوا بيوتهم عن أجداد الأجداد، بعضهم يتمسك بعبق المكان وبعضهم لا يملك ثمن مغادرته.

لكن أزقّة بكين الجانبية، وليست أزقّتها اللامعة بأضواء المحلات التجارية، فيها شيء حزين، شيء كئيب.. قد يكون لون جدرانها وأسقفها؟! فكل الأزقّة موحّدة اللون، رصاصية.. نعم رصاصية، وكل الأسقف موحّدة اللون، سوداء أو ما يقرب من السواد، أظن أن هذا هو سبب الإحساس بالكآبة.

وعندما تنتقل خلال ساعات من الأصفر الإمبراطوري إلى الرصاصي، ومن أُبَّهة المساحات الشاسعة المزركشة إلى تعرجات الأزقّة القديمة الضيقة، يزداد إحساس التناقض والتساؤل بداخلك: هل كان -وما زال- هذا اللون إجباريًّا؟

وإلا، فما تفسير ألَّا يشذّ عليه أحد، وألَّا يتمرد عليه أحد؟!

* * *

- آلو.

- آلو.. أيوه يا بابا، إيه الأخبار؟

- تمام، الحمد لله.. وأنت أخبار شغلك إيه النهارده؟

- عادي.. كويس.

- طيب.. حنتعشى فين النهارده؟ أنا جعان جدًّا، لفّيت كتير النهارده.

- تحب نتعشى فين؟

- أنا لي مزاج آكل أكلة صيني، إيه رأيك؟

- موافق، علشان خاطرك بس، فاكر المحل اللي اشترينا منه شاحن الموبايل، جنبه مطعم كويس، نتقابل الساعة 8؟

- اتفقنا.

في الثامنة كنت أعبر الطريق إلى المطعم، وكان حسام واقفًا أمام محل الإلكترونيات المجاور.

المطعم له لافتة كبيرة، بدأت أضواؤها تنبض مع قدوم الليل، وله شرفة واسعة تطل على حديقة صغيرة ومنسقة وأنيقة، وعلى مكان لانتظار سيارات رواد المحال المصفوفة على الطريق.

حضر المضيف ووضع أمامنا قائمة الطعام، الكتابة بالصيني فقط، لكن ما أنقذنا هو صور الوجبات في الصفحة المقابلة.

تركت المهمة لحسام، وجلست أتطلع للطريق.

* * *

جميل أن تجلس مسترخيًا، جسمك به إنهاك خفيف، نسمة ليلية

ربيعية تلطف الجو من حولك، وابنك الشاب أمامك منهمك في شرح ما تريد للمضيف.

وقع نظري على منطقة انتظار السيارات إلى يمين الحديقة.. فولكس فاجن .. صيني.. أودي.. مرسيدس.. مازدا.. صيني.. أودي.. فولكس فاجن.. فولكس فاجن.. صيني.. فيراري.. هيونداي.. تويوتا.. صيني.. مازدا.. صيني.. نيسان.. أودي.. صيني.

لم أتوقع قبل قدومي أن تكون هذه هي نوعيات السيارات، فضلًا عن حداثة موديلاتها، التي لا أظن أن أيًّا منها يرجع إلى أكثر من عشر سنوات مضت.

نحن لسنا في ساحة فندق فاخر، ولا في منطقة لمساكن الدبلوماسيين، يبدو الحي حديثًا ونظيفًا، لكنه ليس حيًّا لكبار القوم، والأهم أنه في تجوالي في مناطق المدينة المختلفة، كانت هذه هي ملاحظتي للسيارات.

هذا بلد يجري، وليس فقط يسير، للأمام. لا أدري ماذا رأى زائر سابق منذ عشرة أعوام أو عشرين عامًا، ولكن أظن أن الزائر الذي يتكرر حضوره إلى هنا، سيحس بالتعجب لما يراه من سرعة وتيرة التقدم.

لكن في شعب شديد الضخامة والثقل مثل الشعب الصيني، ما نسبة القادرين فيه على الجري بنفس هذه السرعة؟ كم نسبة القادرين على التناغم وبالتالي الاستفادة من هذه التغيرات شديدة السرعة؟ وما نسبة المتعثرين في هذا السباق الصعب؟

هل صاحب السيارة الفولكس فاجن التي أراها هناك، هو صاحب الدراجة القديمة وقد تحسنت أحواله، أم أنه قطاع مختلف من المجتمع،

بينما صاحب الدراجة القديمة، كما هو يحاول صيانتها، فربما لم يعد قادرًا على استبدالها بدراجة أحدث؟

* * *

عدت إلى حسام وعدت إلى المائدة مع قدوم المضيف ووضعه الأطباق أمامنا، فطائر محشوة بالخضروات، طبق كبير من الأرز الأبيض، شرائح من الدجاج وسط صوص بني اللون، وعدة فناجين بها صوصات متنوعة، وكالعادة عصي الطعام التقليدية وملعقة وشوكة وسكين. قلت لحسام وأنا اقضم واحدة من الفطائر:

- هل لك زملاء صينيون؟

- طبعا.

- وإيه مدى علاقتك بهم؟

- سطحية، عامةً مش بيرحبوا بعلاقات قوية أو عميقة، يعني مجرد زملاء، صباح الخير صباح النور، لكن الشغل طبعًا فيه بعض التعاملات الخاصة بالشغل.

- يعني محصلش أنكم اتقابلتم خارج نطاق العمل؟

- ولا مرة بشكل شخصي، لكن مرة واحدة في حفلة خاصة بالشركة.

- هل ممكن يكون السبب منكم؟ أنتم مجموعة كبيرة من المصريين، ودايمًا مع بعض، ومفيش عند حد منكم اضطرار أو دافع لعلاقات شخصية قوية مع الصينيين.

- ده أكيد بيأثر، لكن أظن أنهم بطبيعتهم مش بيرحبوا بتقوية

العلاقات.

قمت بمحاولة فاشلة لأكل الأرز بالعصي، ثم بمحاولة ناجحة لالتهامه بالملعقة بعد أن وضعت عليه بعض الصوص، وعلّقت على كلام حسام:

- لكن ملاحظتي العامة، في المواصلات العامة، في الشارع، في الحدائق، في المطاعم، أن علاقاتهم ببعض حيوية ودافئة أكثر مما كنت أتصور.

- صح، لكن في الشغل الوضع مختلف، حتى بينهم وبين بعض، غالبًا بيشتغلوا في صمت، محدش منهم بيناقش أو يعترض أو يقدم اقتراحات.

- يعني آلات آسيوية منضبطة زي تصورنا عنهم؟!

التقط حسام قطعة من الدجاج بالشوكة ووضعها في طبق الأرز، شرد للحظات ثم قال:

- عارف يا بابا، أوقات بأفكر في حكاية آلات الشغل دي، وأقول أن ده ممكن يكون سبب مهم جدًا للازدهار الاقتصادي اللي حصل في الشرق الأقصى، الانضباط والآلية عنصر أساسي لعمل إنجاز في الشغل.

- لكن برضه مطلوب الإبداع.

- صح، لكن المعادلة المضبوطة، شوية إبداع مع كثير من الانضباط والآلية.

نظرت بسعادة لحسام وأنا أتأمل كلامه وأفكاره:

- أظن أنك حطيت إيدك على مفتاح مهم للإنجاز ولعدم الإنجاز، متهيألي حسب كلامك أن سبب مهم لتدهور الإنتاجية في مصر، أن كل واحد بيتصرف ويتكلم ويحب يظهر أنه مبدع، وأن فيه تصور عام أن الانضباط والآلية مش مطلوبة وأنها دليل على ضعف الكفاءة والخبرة وعدم القدرة على الابتكار.

قطعتان من الدجاج وملعقتان من الأرز.

- ممكن فعلًا الانضباط وآلية العمل تساعد في زيادة الإنتاج، لكن لو الصين حتكون بعد سنوات، زي ما احنا متصورين، قيادة للعالم أو أحد قيادات العالم، ده مش ممكن يحصل بدون إبداع، والإبداع مناخ في العمل ومناخ في البلد كلها، فهل ده موجود؟

شربت كوبًا من الماء.

- طيب، هل أحيانًا بتتكلموا في أمور عامة، الحياة، السياسة، الفن، أحوال المعيشة؟

- أول ما وصلت هنا، كنت فعلًا عايز أعرف أكثر عن البلد وأهلها، حاولت أكوّن صداقات وأتكلم مع زملائي، لكن أقدر أقول أني فشلت، فيه حاجز، أظن التركيبة الثقافية والنفسية بيننا وبينهم فيها اختلافات كبيرة.. وشرب حسام كوبًا من الماء، وقال:

- حاحكيلك موقف ممكن يدلّ على اللي عايز أقوله، في مرة الشركة عملت حفلة عشاء لكل الناس، يومها الصبح واحنا في الشغل، سألت زميلي الصيني: جاي الحفلة إمتى؟ فسكت ثم قال: مش عارف، لمّا أسأل الـBoss الأول. أنا ابتسمت وجاء في ذهني المصطلح المصري، أن الـBoss هو الزوجة، فقلت له: لكنهم قالوا إن الحفلة كمان للأزواج

والزوجات؟ بصيت لزميلي، حسيت إنه تاه مني، وكأني باقول حاجة مش مفهومة، وقال باستغراب: إيه علاقة زوجتي بالحفلة؟! استغربت أنا لاستغرابه وقلت: أنت قلت حأسأل الـBoss الأول؟ فنظر لي بحيادية وقال: طبعًا حسأله، مستر دينج، هو الـBoss في الشغل، ودي حفلة للشغل، يبقى مهم أسأله، هل ضروري أروح وإمتى الوقت المناسب، و...، و... تهت أنا.

كنت أستمع لحسام وأرى التركيبة المصرية والتركيبة الصينية تتباعدان والمساحة بينهما تتسع، وأحاول أن أرى أيضًا صورة المستقبل، التجربة الصينية مهمة للعالم وجزء أساسي من شكل مستقبله، وإذا احتلت الصين مكانًا أكبر في قيادة العالم، وليس فقط في نشاطه الاقتصادي، فسيغيِّر هذا من أشياء كثيرة في عالمنا، لكن هل شعب يغلب عليه التوجس من الآخرين، من الغرباء، الذين هم العالم المفترض أن عليه قيادته، هل سيكون هذا الشعب قادرًا على القيادة في عالم واسع ومتنوع؟

* * *

امتلأت بطوننا وراق مزاجنا، فقررنا التمشية إلى الفندق.. ونحن نعبر إلى الجانب الآخر من الطريق، كان علينا أن نخترق ساحة انتظار السيارات، سيدة عجوز واقفة، تلبس بدلة رمادية أقصر من قامتها القصيرة، وفي يدها كوب بلاستيكي، وتردد كلمات لا أفهمها بالطبع، لكن نبرة الاستجداء واضحة، مررنا بجانبها، ويبدو أنها لاحظت اختلاف ملامحنا عن الملامح الصينية المعتادة، فمضت تلاحقنا، تمد يدها بالكوب البلاستيكي وتردد نفس الهمهمات المتوسلة.. آلمتني نبرة صوتها الضعيفة وبنيتها الهشة ووجهها المجعد ونظرتها المتوسلة.

رؤية شحاذ في بكين ليست شائعة، لكنها أيضًا ليست نادرة.

أظن أن الشحاذين جزء أساسي من مشهد العمارات العملاقة والمتاجر اللامعة والسيارات الحديثة، إذا وجد هذا البريق، فلا بد أن يصاحبه هذا الانطفاء.

الشحاذون هم قاع البائسين في المجتمع، لكن في أي تقدير نسبتهم محدودة وغير مؤثرة، إلا بدرجة ما في تشويه صورة الدولة الحديثة المزدهرة، لكن من هم أعلى منهم درجة أو درجتين في السلم الاجتماعي، هم من نسبتهم كبيرة وتأثيرهم أكبر، هؤلاء الذين يكافحون من أجل عدم الوقوع في القاع المهين، وأظن أن في مجتمع يتسارع نموه الاقتصادي بدرجة لافتة كما في الصين، فهؤلاء قدرتهم على الصمود تضعف، وفي دولة مثل الصين، فأعدادهم تعادل تعداد دول كبرى، ونسبتهم في المجتمع مرتفعة، فإلى أي مدى يمكن للصين أن تتقدم وهي تحمل على ظهرها مئات الملايين من الكادحين الذين لا تتيح لهم قدراتهم الدخول في سياق الاقتصاد الحديث؟

* * *

اقتربنا من الفندق، كنّا نمر على ما مررت به عدة مرات من قبل، ولكني رأيته من جديد، بوابات وأكشاك حراسة وسور، وفي الداخل فيللات تحوطها حدائق، وعلى المدخل لافتة بالصينية والإنجليزية والفرنسية «كمبوند الصفوة».. إنها المدن المُحرّمة الحديثة.

الفصل السابع

الصين الجُوّانية

فتحت عيني فوجدت الظلام يغمر المكان، فقط ضوء خفيف يأتي من وراء باب الحمام الموارب، أما جانب الستارة فلا ينفذ منه أي ضوء، مما يدل على أن الشمس لم تشرق بعد، وحسام غارق في نوم عميق، مما يعني أن السادسة والنصف لم تأتِ بعد.

لكني مستيقظ الحواس، كأنني استغرقت في نوم عميق ليوم كامل، تقلّبت في فراشي بحثًا عن ساعة نوم إضافية، لكن حواسي ازدادت انتباهًا.

سمعتُ صوتًا هاتفًا في السَّحَرْ

سمعت أم كلثوم تحدثني برباعيات الخيام، فأخذ قلبي يرتجف، كشأنه عندما يأتيه هاتف السحر.

القلبُ قد أضناهُ عشقُ الجمالْ والصدرُ قد ضاقَ بما لا يُقالْ

يا ربِّ هل يُرضيكَ هذا الظَّمَا والماءُ ينسابُ أمامي زُلالْ؟!

قمت من فراشي بخفَّة، أزَحْتُ جانب الستارة، كانت الشمس مجرد

ضوء خفيف يتسلل من مكان ما في الأفق لا أراه.

دارت عيناي في المشهد الواسع أمامي، سكون وسكينة، سيارات قليلة تجرح ثبات المشهد للحظات ثم تتوارى، فيعود الصمت الجميل، الذي تعلو فيه أصوات الروح.. توضأت وصلّيت.

لَبِسْتُ ثوبَ العيشِ لم أُستَشَرْ وحِرْتُ فيهِ بينَ شتَّى الفِكَرْ

....

لا تُوحِشِ النَّفْسَ بخوفِ الظُّنونْ واغْنَمْ مِن الحاضرِ أمْنَ اليقينْ

....

يا مَنْ يَحارُ الفَهمُ في قدرِتكْ وتَطلُبُ النفسُ حِمَى طاعتِكْ

....

تطلعت إلى صفوف العمارات في الأفق، لا بد أن في بعضها الآن إنسانًا مثلي، قد تختلف ملامحه عن ملامحي، لن يفهم بعضُنا بعضًا إذا تحدثنا، فاللغة لن تسعفنا، عمله وحياته الأسرية، ونوعية طعامه، ومكان نشأته، مختلف تمامًا عني.. ولكنه الآن وفي نفس اللحظة، يقف وراء نافذة حجرته مثلي، وتجيش روحه بمثل ما تجيش روحي، وتحوم حوله خيالات الأفكار والمعاني بمثل ما تحوم حولي، يتغنى بأم كلثومه وراميه وسنباطيه وخيّامه مثلي.

* * *

تناولت الإفطار، وأخذت في ترتيب شنطة ظهري الصغيرة التي ترافقني، زجاجة مياة صغيرة، بسكويت وشوكولاتة، كتاب Lonley

Planet عن بكين، الكاميرا، خريطة المترو وتليفوني المحمول.

ارتديت ملابسي وأخذت أتأكد من أوراقي، عنوان الفندق، تليفونات بعض الناس للطوارئ، مفتاح الحجرة، النقود وكارت الائتمان. أين جواز السفر؟؟

أسوأ هاجس يراودك أثناء السفر أن تفقد جواز سفرك، وأسوأ من الهاجس أن تبحث عن جواز سفرك في المكان الذي تعودت وضعه فيه فلا تجده، فيتحول الهاجس إلى واقع.

في لحظات انقلب كل شيء رأسًا على عقب، في نفسي وفي الحجرة، أين اختفى؟ دائمًا أضعه في ثنايا البلوفر، وأحتفظ بنسخة أضعها في جيبي عندما أخرج.

البلوفر في مكانه، أقلّب فيه، أفتش في الرف الأعلى ثم في الرف الأسفل، لا شيء، هل وضعته في حقيبة السفر؟ لا أتذكر، لكن لا بد من البحث.. لا شيء.

تحت المخدة، في الكومودينو بجوار السرير.. لا شيء!

ليس معقولًا أن يكون في الحمام، لكني أبحث عنه في الحمام.. لا شيء!

هل أتصل بحسام لأساله؟ لا أريد أن أزعجه أثناء عمله، لا أتصل.. تذكّر يا محمود.. تذكّر.. تذكّر!

آه.. وانقضضت على الدولاب، انتزعت البنطلون من الشماعة، وأخذت أتحسسه.. الحمد لله.. الحمد لله!

وجدته في الجيب الخلفي، وكنت أمس قد وضعته فيه وأنا نازل إلى استقبال الفندق لتغيير الدولارات إلى يوانات، ونسيته فيه.

استلقيت على السرير وجواز السفر في يدي، بلا ذرة من طاقة، ولا أدري كم احتجت من وقت حتى أستطيع النهوض، أكلت قطعة شوكولاتة كبيرة بنهم كبير، وشربت ماءً حتى ارتويت، ووضعت جواز السفر في ثنايا البلوفر، وربطت شنطة ظهري حول كتفي.. وانطلقت.

* * *

في القرن السادس قبل الميلاد، نشأ الثلاثة الكبار الذين منحوا الشعب الصيني حياته الجوّانية.

لكل أمة، لكل أصحاب حضارة، عناصر أساسية تمنحهم تركيبتهم الداخلية، وتنعكس على أسلوب تعاملهم مع الحياة ومع الآخرين ومع أنفسهم.. لكن الصينيين يمتازون عن غيرهم بأن تراثهم على مدى أكثر من أربعة آلاف سنة، كأنه نهر مستمر، يضاف له بالتدريج، ربما تسقط منه عناصر طفيفة، لكنه دائمًا نفس النهر، فكأن الصيني المعاصر لا يختلف كثيرًا عن سلفه القديم جدًّا في تركيبته الجوّانية، حتى لو بدا أن العالم الذي يعيش فيه قد اختلف.

منذ الخطوات الأولى للتحضر وتكوين المجتمع على أرض الصين، كانت تصورات الصينيين تدور حول رؤية التوازن الداخلي بين العناصر المختلفة فيما يبدو من تضاد ظاهري، فثنائيات كالأنثى/الذكر، النور/الظلام، الأرض/السماء، الخير/الشر، هي مظاهر لجدل الحياة، التي يتكامل فيها ما يبدو متناقضًا في الظاهر، بل إن العنصرين المتناقضين، في كل منهما جزء من الآخر.

وأصبحت الحكمة في نظر الصينيين هي تحقيق التوازن بين العناصر المختلفة، وحل هذا التناقض الظاهري.

حتى جاء القرن السادس قبل الميلاد، فنشأت «الطاوية» على يد لاو تسو، و»الكونفوشية» على يد كونفوشيوس. وفي الهند نشأت «البوذية»، التي استغرقت قرونًا حتى وصلت إلى الصين واستوطنت فيها.

ورغم ما يبدو في المذاهب الثلاثة من اختلافات، ورغم ما قد يدور من نقاش نظري حول التناقضات بينها، فالصيني حامل حكمة التوازن التاريخية، وصاحب رؤية الوحدة في التضاد، استطاع أن يمزجها بداخله.

* * *

أتخيل التركيبة الصينية، فأرى أمامي كائنًا يقع في القلب منه مفاهيم «الطاوية»، فهو يحب الطبيعة ويود أن يعيش في وسطها وحسب قوانينها، وأن يتأقلم ويتناغم معها، ولا يرى خيرًا في محاولة تغييرها والسيطرة عليها، ويرى أن الحكمة هي اعتزال كل ما عليه خلاف و عدم الدخول في صراع ، هو أقرب إلى متصوف أو راهب في محراب الطبيعة- الكون.

تركيبته تتوافق مع الفلاح الصيني القديم، حياته هي أرضه، والماء الذي يرويها والسماء والجبال والأمطار والرياح.

تركيبته هدي للإنسان الفرد، في تصوراته إزاء الكون الفسيح، تخاطب وجدانه العميق وأسئلته الوجودية.

* * *

إنْ تُفْصَلِ القَطْرةُ مِن بَحْرِها ففِي مَدَاهُ مُنْتَهَى أمْرِها

* * *

وإذا كانت «الطاوية» هي قلب هذا الكائن الصيني الممتد عبر التاريخ، فإن «الكونفوشية» هي ما يعطيه شكله الذي يتعامل به مع الآخرين، الأفراد الآخرين، أسرته، مجتمعه الصغير، دولته الكبيرة.

الكونفوشية رؤية لعلاقات البشر على كافة المستويات، العلاقات داخل الأسرة، العلاقات في المجتمع الصغير أو الكبير، تنظيم الدولة.. رؤية هدفها أن تكوِّن هذه العلاقاتُ تنظيمًا يكفل إدارة الأسرة- المجتمع- الدولة، بكفاءة وفي صالح كل أفراده، وترى أن الاستقامة الأخلاقية والكفاءة في أسلوب التفكير والعمل الجاد، هي أسلوب تحقيق هذا المجتمع الصالح، وتضع تسلسلًا هرميًّا للمجتمع ولكل وحداته، فهناك الإمبراطور- الحاكم- الأب- الزوج- الأخ- الأكبر سنًّا، وهؤلاء يجب أن يحظوا بالطاعة الكاملة، وفي المقابل فعليهم تقديم الرعاية المخلصة لمن يطيعونهم.

فكأن «الكونفوشية» تعطي المجتمع شكله وإطاره التنظيمي وتكفل حسن إدارته.

* * *

لا تَشْغَلِ البالَ بماضِي الزمانْ ولا بآتِي العيشِ قبلَ الأوانْ

* * *

أما «البوذية» فهي إضافات تتفاوت درجة عمقها في هذا الكائن الصيني، فهي قادمة من الهند، لكنها منحت التركيبة الصينية ما

افتقدته في الطاوية والكونفوشية.. منحتها صورة الإله، وهو هنا إله متعدد الأشكال، ليتناسب مع المواقف المختلفة، ومنحتها الطقوس: الباجودا بيوت الصلاة- مظاهر الصلاة- البخور- الرموز الدينية- الحج.. طقوس يتوق الإنسان بطبيعته إليها؛ لأنها تعطيه تجسيدًا لما تمتلئ به روحه من مشاعر وأماني ومخاوف، وتمنحه تجمعًا وتآلفًا مع من يشتركون معه في نفس طبيعة الإيمان.

لم يجد الصيني هذه الديانة الوافدة مناقضةً لقلبه طاويّ الهوى، فهي تبحث عن الراحة الفردية والخلاص الشخصي، وأيضًا هي لا تتعارض مع الكونفوشية التي يقوم تنظيمها على الخلق القويم، فهي «البوذية» تدعو للتسامي الروحي الأخلاقي؛ لهذا رحبت الصين بالبوذية.

***

أَطْفِئْ لَظَى القلبِ بِشَهْدِ الرُّضَابْ   فإنَّما الأيامُ مِثْلُ السَّحَابْ

***

وهكذا أصبحت التركيبة الصينية خليطًا من المذاهب الثلاثة، أعملت الصين تراثها القديم في التوفيق والتناغم، فحرصت على إذابة ما يبدو من تناقضات بين المذاهب الثلاثة، حتى كأنها أصبحت متجاورة ومتجانسة في الجسد الصيني.

وشأن كل تركيبة، تتفاوت نسب عناصرها من مكان لمكان، ومن زمان لزمان، وحتى عند كل إنسان، أو عند الأمة ككل، من موقف لآخر، فتتوقع أن ترى نسبة الطاوية تزداد في الأرياف وبين فقرائها، وأن ترتفع نسبة المكون الكونفوشي في المدن الكبيرة وبين الأعلى تعليمًا والأقدر

ماديًّا، وتتوقع أن تتبنّى الدولة الإمبراطورية، المفاهيم الكونفوشية، وخاصة في مراحل قوتها وتوسعها، وتتوقع أن يلجأ الناس العاديون للطاوية والبوذية، وخاصة في أوقات أزماتهم، وهي كثيرة.

تتوقع أن ترى الطاوية والبوذية تطل علينا في الأعمال الفنية: الرسم، النحت، الموسيقى، العمارة.

لكن في كل وقت وفي كل مكان وفي كل إنسان، إذا بحثت عن هذه التركيبة، فستجدها.

* * *

دخلت من باب محطة المترو التي تجاور نهرًا صغيرًا، مزروعًا على ضفتيه سلسلة من أشجار الصفصاف متهدلة الأغصان.. ممر طويل ينحدر إلى أسفل، ثم سلم متحرك طويل طويل، ربما درجاته تتجاوز الستين درجة، ينقلني أكثر إلى الأعماق، على الجدار الذي يواجه النازلين على السلم لوحة ضخمة لحمامة بيضاء على خلفية سماوية.

تنفست بعمق وارتياح، ونزلت أكثر إلى باطن الأرض، حيث شق الإنسان بفكره وعلمه وعمله واجتهاده شبكة رائعة وكبيرة من الأنفاق، تنطلق فيها عربات المترو إلى كل مكان في بكين.

إلى محطتي الأولى اليوم، المعبد الأكبر للطاوية في بكين، معبد «دونج يو».

* * *

في محطة الوصول صعدت بالسلم المتحرك إلى أعلى، ثم سِرْتُ في الممرات الطويلة صاعدًا أكثر إلى سطح الأرض، خرجت إلى ضوء النهار.

أبراج أبراج أبراج، على مرمى البصر وفي كل الاتجاهات، كانت هذه المنطقة يومًا ما في أطراف بكين؛ ولهذا اختارها الرهبان الطاويون لبناء معبدهم، بعيدًا عن صخب المدينة، وعاشوا قرونًا في عزلتهم يتأملون ويتدارسون، لكن زحف المدينة أحاط بهم تدريجيًّا، وعندما وصلت إلى المعبد وجدته محاصرًا بالفعل، ليس ببعض المباني، بل بغابة حقيقية من الأبراج الشاهقة اللامعة بالزجاج والمعادن.

فتحت دليل الإرشاد السياحي، فوجدته يتحدث عن القوس الكبير المزخرف الذي يعد آية فنية، أخذت أبحث عنه، فلم أجده، سألت واحدًا من المرشدين السياحيين الذين يقفون على مداخل المزارات السياحية، فقد يَودُّ أحد الزائرين مرشدًا خاصًّا، فأشار إلى بعيد.

نظرت حيث أشار، مسافة تزيد عن مئتي متر، كان القوس الكبير المزخرف هناك على الجانب الآخر من الطريق العريض، سألته بابتسامة:

- حقًّا، لماذا ذهب هكذا إلى بعيد؟

قلب شفتيه بتسليم وقال:

- كان دائمًا هناك، ولم تكن المسافة تبدو بعيدة هكذا، حتى جاء الطريق والسيارات وكوبري عبور المشاة.

في بداية المعبد ساحة، في وسطها ممر على جانبيه سور، السور كله كتلة حمراء، حتى إن حديد السور لا يَبِين، والأحمر هو لون الشرائط الحمراء المربوطة والمتدليه التي تغطي كل المشهد.

عندما يريد إنسان أن يُعبِّر عن انتمائه للطاوية، ويريد أن يسجل

هذا تذكارًا في معبدها، يكتب اسمه على مربع خشبي أحمر، ثم يضع المربع الخشبي في شريط أحمر، ثم يعلّق الشريط في سور مدخل المعبد.. رأيت هذا المنظر في هذا المعبد، ورأيته أيضًا في معابد أخرى.

وعلى جانبي الساحة حجرات صغيرة، في كل منها تماثيل لأناس وحيوانات وطيور وأيضًا لمخلوقات أسطورية، تروي كل حجرة مشهدًا يعبر عن العقيدة الطاوية.

وفي المواجهة مبنى الصلاة، زخرفة بسيطة وبعض الزهور وبخور، دخلت فوجدت شابًّا في ملابس لها لون بين الرمادي والأزرق، يبدو لي أنها ملابس خاصة بالنسّاك والدارسين الطاويين، وفي الدقائق التي تجولت فيها في المكان، كان - بشكل مفتعل- يلوي رقبته في اتجاه السقف وينظر بثبات إلى أعلى ولا يتحرك، وهكذا كان الحال في مباني الصلاة الأخرى التي دخلتها في المعبد الكبير الهادئ.

غادرت المعبد وأنا أحاول أن أتخيل مدى ألم أرواح الطاويين المخلصين، المؤمنين بأن الخير كله في نبذ العالم والعودة للطبيعة واعتزال المجتمع والاستغناء والبساطة في العيش، وجدت أرواحهم تطوف بمعبدهم الذي عاشوا فيه حياتهم المثالية، وقد روّعتهم السيارات التي تمرق أمامه، وحاصرت أرواحهم المباني الشاهقة حوله.

* * *

ولَسْتُ بالغافلِ حتَّى أرَى جَمالَ دُنياي ولا أجْتَلِي

* * *

في المترو مرة أخرى، إلى محطتي الثانية، خرجت من المحطة،

طالعت الخريطة، سِرْتُ في الطريق، الطريق الذي يقودني إلى معبد كونفوشيوس وإلى معبد لاما البوذي.

عند مفترق الطرق، إذا اتجهت يمينًا أصل إلى معبد كونفوشيوس، وإذا واصلت السير أصل إلى معبد لاما البوذي.

اتجهت يمينًا، وقور كما ينبغي أن يكون.. مدخل المعبد. في الساحة الأمامية تمثال للمفكر والفيلسوف والمعلِّم الذي أثر في حياة الصينيين كما لم يؤثر غيره، إنه المبجّل Kongzi أو كما نطلق عليه: كونفوشيوس.

أتأمل التمثال، لا القامة ولا ملامح الوجه ولا نظرة العينين تنبئ عن قدر هذا الرجل، الذي يعد من أكبر من أثروا في مسار الإنسانية.

أخرج كاميرتي وألتقط صورة "سيلفى" للمبجّل كونفوشيوس وأنا.. معًا.

أعبر إلى الساحة الأمامية، أيضًا الشرائط الحمراء والمربعات الخشبية الحمراء، هذا التقليد الصيني الجميل. أتباع ودارسون، وأيضًا زائرون أحبوا أن يتركوا ذكراهم في هذا المعبد الذي تلفُّ أجواءه الحكمة.

إلى اليمين باب ، أدخل فأجد إضاءة خافتة، أتابع مسيرة كونفوشيوس، نشأته، نشأة أفكاره، تجواله بين الممالك الصينية المتناحرة لإقناع الحكام بأفكاره عن تنظيم الدولة والمجتمع، وعن أسس الإدارة الرشيدة، جمعه لكلاسيكيات التراث الصيني وتدوينها. تصوير لمشاهد هامة من حياته، مخطوطاته القديمة، كلماته المأثورة:

"الحكمة هي معرفة الناس، والفضيلة هي حب الناس".

"في مجال التعليم، لا مجال للحديث عن أصحاب الأصل الرفيع

وأصحاب الأصل الوضيع".

"مقياس حياة الإنسان ليس كم عمره، ولكن كيف كان نصيبه من الصلاح".

"إذا كنت لم تفهم الحياة بعد، فكيف تستطيع أن تفهم الموت؟"!.

"أساعد أولئك الذين يساعدون أنفسهم".

"التأمل وحده لا يؤدي إلى الحكمة".

"أنجِزْ للناس ما تَوَدُّ إنجازه لنفسك".

أتجول في ساحات المعبد ومبانيه، في الساحات أشجار عتيقة وأرائك، لا بد أنها شهدت مناقشات دراسية حامية، وجلسات كان فيها التلاميذ يلتفّون حول أساتذتهم خارج قاعات الدرس.

وفي ساحة جانبية، وجدت عشرات الأعمدة، كل منها يعلو تمثالًا لسلحفاة ضخمة، ومكتوبٌ على الأعمدة ما يبدو أنه سجل أعمال صاحب هذا الشاهد.

لا أدري هل هذه مجرد شواهد تذكارية لشخصيات هامة في تاريخ الفكر الكونفوشي، أمْ أنها -بالإضافة لذلك- شواهد على قبور هذه الشخصيات الهامة، آثرت أن تبقى بعد الممات قريبة من محرابها الفكري؟

ومن بوابة في الجدار الجانبي للمعبد، عبرت إلى الناحية الأخرى، حيث كلية الدراسات العليا التي كانت ملحقة به، والتي كان الالتحاق بها يمثل قمة الشرف لمن اتخذوا هذا السبيل.

هذا المعبد الذي أغادره الآن، كان قبلة الطموح لمن يريد أن يسلك الطريق نحو الجهاز الإداري للدولة، فالكونفوشية أسست نظام التعليم والامتحانات الصيني؛ لأن التعليم في تصورها هو حجر الأساس لإيجاد وتنشئة وتطوير قدرات النخبة القادرة على إدارة شئون الإمبراطورية.

وسبقت في هذا الصينُ العالمَ بمئات السنين، في تنظيمها الصارم لنظام تعليم قائم على مناهج محددة هي كلاسيكيات التراث الصيني، والتدريب على فهم النصوص وتحليلها والاقتباس منها، وفي تنظيمها الصارم لنظام الامتحانات المحكم، لاختيار أصحاب الكفاءة لتولي وظائف الإدارة الحكومية.

وكان كونفوشيوس يرى أن القدرة على الفهم والتعلُّم ليست مرتبطة بالأصل الاجتماعي، فأرسَى المبدأ الديمقراطي السابق للعصر، وهو حق كل من له القدرة العقلية في أن يسلك طريق التعليم، بصرف النظر عن قدرته المادية، وأوجد بهذا ما كفل استقطاب اصحاب الكفاءة من كل مكان في الإمبراطورية، وكفل بالمناهج الدراسية تجانسهم الفكري، وكفل انتماءهم لمنظومة الإدارة كما تصورها، وكفل من خلال إشباعهم بفكره ولاءهم لسلسلة الحكم التي تنتهي بالإمبراطور.

وهكذا ساعد هذا النظام الديمقراطي للتعليم، على استقرار وكفاءة النظام الإمبراطوري الدكتاتوري!!

***

لا تُوحِشِ النَّفْسَ بخَوْفِ الظُّنونْ   واغْنَمْ مِن الحاضِرِ أمْنَ اليقينْ

***

شارع قصير يفصل بين معبدي كونفوشيوس ولاما البوذي.. الشارع كله محالٌ صغيرة تبيع لمريدي البوذية رموز ديانتهم، تماثيل بوذا المختلفة الشكل والحجم، البخور، اللوحات، الميداليات، المنسوجات.. يزداد الزحام كلما اقتربت من المدخل.

أقف أمام شباك التذاكر، أدفع النقود، فتقدم لي الموظفة تذكرة الدخول، ومعها CD للمعبد، وحزمة من أعواد البخور.

حديقة متوسطة الطول، أعبرها وأنا يتراءى لي على البعد دخان يتصاعد في الهواء، وعندما أصل إلى الساحة التالية، أجدني وسط المصلّين.

في الوسط ما يشبه المنضدة، لكن وسطها عميق، وبه شيء كأنه رمل، وبجانبه منضدة أصغر على سطحها جمرات مشتعلة، يوقد المصلّي عيدان بخوره من الجمرات، ثم يغرسها في الرمل، فيتصاعد خيط من الدخان، وتتجمع الخيوط فتصنع سحابة صغيرة خفيفة، لها رائحة خاصة، لا أستطيع ان أصفها بالجمال، ولكن يمكن وصفها بالرائحة الغامضة.

وبعد أن يضع المصلّي عيدان بخوره، يتكئ بركبتيه على وسادة مبطنة، ويتجه بنظره إلى مبنى الصلاة الذي تحرسه الأسود الصينية التقليدية، والذي يبدو من خلال بابه تماثيل بوذا.

صلاتهم قصيرة، يؤدونها في هذا الوضع، الركبة مثنية والقامة مشدودة واليدان مضمومتان في ابتهال، ثم يميلون لأسفل ليَصِلوا إلى وضع السجود.

على وجوه المصلين خشوع ورجاء، وملامحهم تشي بالتنوع، فرغم

أن العرق الصيني يبدو لنا كأنه نسخ متكررة، فهناك فروق بين الملامح العامة للصينيين واليابانيين والكوريين والتايلانديين والكمبوديين، وفي معبد لاما تحس أنك ترى ملامح اختلاف عما أَلِفْتَ من ملامح الصينيين، بل يفاجئك أيضًا غربيون يصلون لبوذا، قادهم بحثهم إلى هذه العقيدة، التي نشأت وانتشرت في بلاد لها تراث ثقافي بعيد للغاية عن التراث الغربي، لكنها حيرة الإنسان وبحثه الدائب عما يشبع روحه وتساؤلاته الوجودية.

فكأن هذا المكون البوذي في الثقافة الصينية هو أحد طرقها للالتقاء مع ثقافات البلاد المجاورة لها في هذا الشرق البعيد، بل أصبح أيضًا أحد طرقها للقاء جماعات من كل أنحاء العالم، يؤمنون بالبوذية، فيجدون جزءًا من نفوسهم يلتقي بمواطن البوذية الصينية والآسيوية.

وفي المعبد، وعلى مدى محوره الرئيسي، تتوالى المباني التي تضم تماثيل بوذا ورموز ديانته، على تنوع ألوانها وملامحها، وأمامها يتصاعد دخان البخور، وتُتلَى الصلوات وتتناثر أصص من زهور كبيرة، وأيضًا أطباق للفاكهة.

أما على الجوانب، فغرف عديدة تتحدث عن تاريخ البوذية وعن تاريخ المعبد، تماثيل وصور ومخطوطات، وعلى الجوانب أيضًا عجلة الصلاة، وهي أسطوانة معدنية عليها بعض الكتابات، يمر البوذي بجوارها فيمسها ثم يديرها حول محورها، فكأنه يتلو ما عليها من صلوات مكتوبة.

ووسط الوجوه الكثيرة، يمر بين الحين والحين، راهب بردائه القرمزي وشعر رأسه الحليق، يطل على المكان وعلى الناس وشفتاه تتمتمان بالتراتيل.

* * *

أَطْفِئْ لَظَى القلب بِشَهْدِ الرُّضَابْ   فإنَّما الأيامُ مِثْلُ السَّحَابْ

* * *

رَأَيْتُ الطريقَ عريضًا فسيحًا..

ورأيتُ الطريقَ طويلًا ممتدًّا..

ورأيتُ الحديقةَ الغنَّاءَ تلوح من بعيد..

ورأيتُ الشمسَ الحانيةَ تمنح لونها الدافئ لوجوه الناس وهم ماضون في الطريق إلى الحديقة..

وكنتُ واحدًا من كثيرين..

غربت الشمس وظهر القمر وتلألأت السماء بالنجوم..

قطرات مطر تتساقط، فأُحسُّ برعدة وأحسُّ بسعادة..

اقتربت الحديقةُ، فإذا بي داخلَها، وإذا بهفهفة نسيم ونغمات ساحرة وألوان بهيجة..

سَمِعْتُ.. صَوْتًا.. هَاتفًا.. في السَّحَرْ

سَمِعْتُ صَوْتًا هَاتفًا في السَّحَرْ

في السَّحَرْ

السَّحَر.

الفصل الثامن

جولة حرة

أستيقظ غالبًا عندما يغلق حسام الباب وراءه مغادرًا إلى عمله، وربما قبل ذلك، فنتبادل بعض الكلمات، وأحيانًا يفاجئني أنني لم أحسَّ باستيقاظه وحركته وإغلاقه الباب، فألتقط ساعتي، ولم يحدث أن وجدتها قد تجاوزت الثامنة.

أول ما أقوم به أن أفتح الستارة العريضة الممتدة بعرض جدار الغرفة، المرتفعة بقدر ارتفاعها، فتتراءى لي بانوراما واسعة من الطابق التاسع عشر، مساحات شاسعة من اللون الأخضر، حدائق وأشجار، وقناة مائية تمتد أمام الفندق وتنطلق إلى حيث تكبر فتصنع بحيرة تتوسط ملاعب رياضية في الناحية الأخرى من الطريق، وإلى اليسار يمتد الطريق الدائري الثالث، والسيارات تتلاحق فوقه آتية وذاهبة، وإلى اليمين مجموعة من الفيللات يتوسطها حمام سباحة، أما أمامي فتبدو غابة من العمارات الشاهقة تعلوها إعلانات تجارية.

أغسل وجهي.. أتوضأ.. أصلِّي.. أحلق ذقني.. أرتدي ملابس خفيفة.. أخرج.. أغلق الباب ورائي.. وأتجه إلى المصعد.

في الردهة أبواب خمسة لمصاعد خمسة، أضغط على أحد أزرار

النزول فتضيئ الأزرار الخمسة.. أبدأ اللعبة اليومية بتخمين أي الأبواب سيفتح، وأقف أمام الباب الذي توقعته.

رنّة واضحة تعني وصول المصعد، أحس بلمسة سعادة إذا كان تخميني صحيحًا ووجدت الباب الذي توقعته يفتح. أما إذا لم يحدث هذا، فأحيانًا أستسلم، وأحيانًا أخرى يستبدُّ بي النزق، فأنتظر وصول مصعدي الذي اخترته.

* * *

على مدار أيام الرحلة، كنت أخطو إلى المطعم، فأجد ثلاثتهن أو على الأقل واحدة منهن:

«مارى» القصيرة ذات الضفيرة الطويلة..

و«ليزا» الطويلة ذات الشعر القصير..

و«كاتى» الممتلئة صاحبة الغمازات العميقة في الوجنتين.

ما عدا هذه الاختلافات فكل شيء آخر متطابق، الزي، شدّة الوقفة في مدخل المطعم، ابتسامة الترحيب الهادئة، دفتر في يد وقلم في اليد الأخرى.

ثم نفس السيناريو:

- سير.. رقم الغرفة من فضلك.

تضع علامة في الدفتر، ثم تشير ماري أو ليزا أو كاتي بذراعها: تفضّل. لكنها تتفضل هي أمامي، فتسبقني وتسير بين الموائد، ولأسباب لا أدريها تختار لي مقعدًا هنا أو هناك، ثم تفتح منديلًا يضم

أدوات المائدة وترجع الكرسي إلى الخلف، فأجد نفسي جالسًا.

- سير.. قهوة أم شاى؟

أقوم لأنتقي إفطاري، فأجد مجموعة من زملاء وزميلات حسام على مائدة طويلة في جانب الصالة.

- صباح الخير يا شباب.. صباح الخير يا شابّات.. - صباح الفل يا عمو.. أخبارك إيه في بكين يا أنكل؟ عجبتك؟ شفت سور الصين العظيم وللا لسه؟.. رائع.. حظك حلو أن الجو جميل اليومين دول.. إمبارح مشيت مشي في المدينة المُحرّمة لمّا رجلي اتكسرت.. تصدق يا عمو أني لسه ما رحتهاش.. مش معقول.. وأخبار الـ shopping إيه؟.. خد بالك الفصال هنا مش طبيعي، يعني ممكن تاخد الحاجة بعُشر الثمن.. أكيد مجهز حاجة مع حسام للويك إند.

الشركة التي يعمل بها حسام وزملاؤه، العمل بها 24 ساعة يوميًّا و7 أيام في الأسبوع، يتناوبون العمل صباحًا ومساءً؛ ولهذا في أي وقت تجد بعضهم يغادر إلى العمل، وبعضهم عائدًا من العمل، وبعضهم في يوم عمل، وبعضهم في يوم إجازة.. دائرون في الطاحونة، وجدوا أنفسهم في قلب آلة العمل الصناعي الرأسمالي، مضافًا إليه التراث الراسخ لتقديس جدية العمل عند الشرق آسيويين.

عندما أمر بهم وعندما أجلس بقربهم، تلتقط أذني أحاديثهم التي لا تخرج عن أحداث العمل وعلاقات العمل، وأسماء الرؤساء المباشرين، وهؤلاء الجالسين على مقاعد الإدارة العليا في الشركة، يصدرون قرارات تحدد لهم مسارات حياتهم، رضوا بذلك أم أبوا.

* * *

على مدار أيامي البكينية، كنت أرى في المطعم مجموعات الشباب والشابات المصريين، وكثيرًا من الصينيين، أغلبهم رجال منفردون، وبعض الغربيين، أسرًا أمريكية أو أوروبية جاءت وأبناؤها لرؤية هذا العالم الصيني.

لكن مما أضاف لحيوية المكان لأيام عديدة، رحلتان، إحداهما لأطفال أعمارهم بين العاشرة والاثنتي عشرة، كانوا يلبسون زيًّا موحدًا مكتوبًا عليه: Hong Kong International School.

عشرات من الأولاد والبنات يجلسون على موائد طويلة، في أياديهم هواتفهم المحمولة، يتبادلون رؤية الصور التي التقطوها في جولة الأمس، يتضاحكون وترتفع أصواتهم، وفجأة يسكنون تمامًا اذ يبدو أن نظرة ما قد التقطتها أعينهم من مائدة المدرسين والمدرسات الجالسين في ركن القاعة.

أما المجموعة الأخرى فكانت لشباب وشابات من ألمانيا، يبدو لي أنهم في رحلة جامعية.

أصبحت الصين قِبلةً جديدة للمستقبل، ومن يريد فهم المستقبل فعليه أن يفهم الصين.

* * *

أَمُرُّ على جوانب المطعم الذي توزعت فيه أصناف الطعام، أنتقي بشكل مبدئي ما تعودت أن أتناوله، الأصناف العالمية للطعام: زبادي.. جبنة.. قطع من الفواكه.. مربي.. بعض شرائح الخبز.. وأطلب بيض أومليت بالطماطم.

وعلى مدار الرحلة حاولت أن أجرب بعضًا من المأكولات الصينية، اجتهدت في المحاولة، لكنني في أغلب الأحوال لم أستطع استساغتها.

أسترخي في مقعدي وأنا أترشف الشاي ببطء وبمزاج.. مثل كل يوم، أفكر في برنامج اليوم، لكن اليوم لا تفكير ولا تخطيط.. اليوم جولة حرة.

* * *

أنا ممن عادتهم أن تكون لهم خطة تفصيلية واضحة لما يفعلونه، وأحس بالارتياح عندما أفعل ما كنت قد رسمت صورته في ذهني من قبل، وأحس بالسعادة أن تسير خطواتي كما وضعت خطتي.

لكني اليوم قررت أن أتمرد على نفسي وعلى عاداتي، سأخرج اليوم بدون خطة، سأركب الأتوبيس الذي يأتي بدون أن أعرف مساره، وسأنزل كما يتراءى لي في أي محطة تخطر وقتها على بالي، وسأتمشى في شوارع لا أعرفها.. أنا اليوم سائح حقًّا في بكين.

ولكن لأن الطبع غلّاب، ولأن الاحتياط واجب، فقد تأكدت من وجود خريطة بكين وخريطة المترو، وأيضًا من وجود كارت الفندق مكتوبًا بالصينية، فإذا ضللت الطريق واحترت، أحاول الوصول إلى أي نقطة في شبكة المترو أو أركب تاكسي أعود به إلى الفندق.. اليوم جولة حرة.

* * *

وقفت على محطة الأتوبيس، قراري المسبق هو ألّا أركب أتوبيسات أرقام 405 أو 421 أو 707، لأنني أعرف مسارها، ماعدا ذلك، فسأركب الأتوبيس الذي يأتي أولًا.

لاح الأتوبيس من بعيد، اقترب فرأيت رقمه 516، إذن هيا.

معظم المقاعد مشغولة، وجدت مقعدًا بجوار سيدة تحمل طفلًا رضيعًا، الأطفال في الصين مميزون، ربما لأنهم يشبهون الدُّمَى، الوجه مشدود والعيون مسحوبة، والشعر فاحم السواد ينتهي بفيونكة كالنافورة في منتصف الرأس، ودائما ألوان ملابسهم زاهية، بمبي.. أزرق.. أصفر.

مدت الطفلة يدها الصغيرة فلامست أذني، نظرت إليها وابتسمت، فابتسمت لي ومطّت بوزها.. لاحظت أمها هذه النظرات المتبادلة، بسرعة نقلتها إلى ذراعها الآخر بعيدًا عن ناحيتي، ونظرت بثبات إلى الشارع من خلال زجاج الأتوبيس.

تذكرت أن وجهي يبدو غريبًا، غريب أنا بالنسبة للأم، ولكني قريب بالنسبة للطفلة.

محطة وراء محطة، ينزل ناس ويصعد ناس، وبينما يتنقل نظري بين ركاب الأتوبيس وبين الشوارع والمباني التي نمر بها، وجدت الكمسارية تنطلق وهي تزمجر إلى مقدمة الأتوبيس (الأتوبيسات القليلة التي كان فيها كمساري، كان الكمساري سيدة).

وقفت الكمسارية أمام أحد المقاعد، وأخذت تزوم وتزمجر، وأمامها شابة واقفة منحنية الرأس في خجل، وبعد لحظة أشارت لسيدة عجوز أن تجلس على المقعد الذي خلا، وتوقف الأتوبيس فنزلت الشابة في المحطة، وعادت الكمسارية إلى مقعدها وهي ما زالت تزوم وتزمجر.

* * *

ترك الأتوبيس وراءه الطرق الفسيحة والأبراج العالية والمشاة المتناثرين على الأرصفة، وبدأت الشوارع تضيق والمباني تقصر والمشاة يتزايد عددهم، ومر الأتوبيس بجوار سوق كبير مزدحم للخضروات والفواكه، فقلت: هذه هي المحطة المناسبة للنزول.

تبدو لي المنطقة كحي لمتوسطي الحال، الشارع الذي يمر به الأتوبيس متوسط الاتساع، لكن الشوارع المتفرعة عنه أضيق، والبيوت على الجانبين مقبولة المظهر، لكن تلمح فيها ضعف الإمكانيات، طلاء مقشور، زجاج مكسور، كراكيب في الشرفات، ملابس الناس توحي بمحاولات ستر المظهر، موديلات السيارات المارّة والمنتظرة أقدم مما تعودت أن أراه، طريق الدراجات الجانبي مزدحم.. زحام مقبول، محال صغيرة على طول الرصيف، بقالات، مطاعم صغيرة، محال ملابس، محال للبلاستيكات، مصوراتي، محال لعب أطفال، معظم المحال تضع جزءًا من بضاعتها على الرصيف، والناس يتحلّقون حولها، يقلّبون فيها، يساومون ويشترون.

عدت على الرصيف في اتجاه سوق الخضروات والفواكه الذي رأيته من الأتوبيس .. سوق كبير، أنواع لا حصر لها من الخضروات والفواكه، بعضها أعرفها وأكثرها لا أعلم ما هي، طاولات موحدة المقاس، وخلف كل واحدة رجل أو امرأة، غالبًا متوسط العمر، يعيد ترتيب بضاعته التي بعثرها الزبائن، وغرس الأوراق المكتوب عليه الأسعار.

المكان مزدحم بالطاولات والباعة وجيوش المشترين، لكنه منظم ونظيف، وعلى الرصيف رأيت عربة عليها تل من ثمار الأناناس، صاحبها واقف، يلبس مريلة بيضاء، في إحدى يديه قفاز بلاستيكي وفي اليد الأخرى مقشرة، يقشّر الأناناسة في خطوط مائلة، ثم يضعها على

لوح أمامه ويقطعها بالسكين، فتتحول إلى مكعبات صفراء كهرمانية، يرصُّها في علبة بلاستيكية ويغطّيها.

اشتريت علبة، فتحتها والتقطت مكعبين، واستمتعت بالطعم الحلو اللاذع والعصارة الغنية المبهجة.

* * *

أتمشى على الرصيف، أنا الوحيد غير الصيني في هذا المكان، ولا أعلم أين أنا، ولا في أي حي، ولا في أي شارع، ولا أظن أن أحدًا ممن حولي يعرف الإنجليزية، التي سأحتاجها إذا أردت التفاهم في أي شأن، ولا أرى حولي -كما في أماكن أخرى عديدة في بكين- لافتات أو إرشادات طريق بالإنجليزية.

أنا الغريب وسط هذا الزحام، لكني -للغرابة- لا أشعر بالغربة، وأيضًا لا أشعر بعدم الأمان.

وصلت إلى بكين وفي داخلي الرهبة المعتادة للغريب، وفي بالي التعليمات المعتادة التي على الغرباء اتباعها، وفي ذاكرتي حكايات سمعتها ومواقف مررت بها في زيارات سابقة لمدن أوروبية كبرى.

في المدن الكبرى، إذا كانت ملامحك غريبة، وإذا كنت تحمل خريطة وتقف عند تقاطعات الطرق، تتطلع وتحاول أن تعرف موقعك، فغالبًا ما سيكون هناك من يترصّدك، ويدبر لك احتيالًا أو سرقة، وسترى أثناء سَيْرِك من ينظرون إليك بملامح قنّاصة، وسيكون أحد هواجسك الدائمة أن تؤمِّن نفسك، وأن تتجنب أماكن معينة وأوقاتًا معينة، وأن تحاول التصرف بحيث لا تبدو غريبًا. -

لكن في بكين، ومن اللحظة الأولى، لم أحس هذا في أي مكان وفي أي وقت، ولم أرَ حولي وجوهًا أحسست أنها تحمل احتمال البحث عن صيد بالسرقة أو الاحتيال أو العنف.

تمشيت وأنا آكل مكعبات الأناناس اللذيذة، وسط آلآف من بشر لا أستطيع الحديث معهم، وقد لا يساعدونني إذا احتجت لمساعدتهم، لكني لا أخافهم ولا أتوقع منهم شرًا.

* * *

أين محطة المترو؟

لا توجد وسيلة للوصول إليها إلا قدماي، لا توجد أي علامة أو إشارة بالإنجليزية توضح الطريق أو الاتجاهات، وليس من المحتمل أن أصادف من يفهم سؤالي ويدلني على الطريق.

ليس هناك مشكلة، أَلَسْتُ في جولة حرة؟ فلتكن حرة خالصة وبلا دليل وبلا خطة!

أواصل السير فيبدو لي في الأفق طريق واسع، الاحتمال الأقرب أن تكون محطة المترو في الطرق الواسعة، أصل إليه، أتلفّت يمينًا ويسارًا، أرى العلامة المميزة للمترو تلوح من بعيد.

دقائق وأصل إلى المحطة، بجوارها ساحة كبيرة مكدسة بالدراجات، عادة بجوار محطات المترو توجد ساحات لانتظار الدراجات، فالدراجة ما زالت وسيلة تقليدية للتنقل، لكن مع اتساع المدينة أصبحت الدراجة وسيلة لقطع جزء من الطريق، أما الجزء الآخر، فلا بد فيه من ركوب الأتوبيس أو المترو.

وفي كل شوارع المدينة، أحيائها القديمة وأحيائها الحديثة، هناك مسار خاص للدراجات، في الأحياء القديمة تتوالى فيها الدراجات، أما في الأحياء الحديثة فالدراجات تأتي كل حين.

بجوار ساحة انتظار الدراجات، يوجد أمام المحطة صف من الدراجات الحديثة.

في الصين هناك دائمًا، في كل مكان وفي كلٍ مجال، هذا التجاور بين القديم والحديث، وكأنها عملية تسليم وتسلُّم، تتم برضا وسلاسة وانضباط.

يأتي شاب على أحد كتفيه شنطة اللاب توب، وفي الذراع الأخرى خوذة أمان، يضعها فوق رأسه، ويخرج حافظته، ويخرج منها كارت ائتمان، يضعه في الماكينة المربوط فيها الدراجة، تصدر صوتًا، فيسحب الدراجة وينطلق في حماس.

في محطة أخرى، سيستطيع هذا الشاب أن يترك هذه الدراجة، ويضع كارت الائتمان على الماكينة، فتسجّل مدة تأجير الدراجة، ويحتسب الثمن تلقائيًّا من حسابه البنكي.

* * *

أنزل إلى باطن الأرض.. بعد عدة مرات من استخدام المترو تحس بامتلاك مفاتيح التعامل معه، يصبح سهلًا أن تعرف إلى أي رصيف تتجه، وتستطيع بنظرة سريعة للّافتات أن تعرف عدد المحطات الباقية، وأن تحدد أين ستنتقل من خط للمترو إلى خط آخر.

وفي مدن مثل بكين -بشبكة خطوط المتروالكثيفة فيها- تساعدك

هذه القدرة كثيرًا على التجول بحرية، فلم يعد هناك مكان بعيد أو يصعب الوصول إليه، ومن أي مكان تستطيع الوصول إلى الأماكن التي تألفها.

أركب المترو، هذه المرة لا أدقق كثيرًا في اتجاه السير أو عدد المحطات، فبيني وبين نفسي عهد أن هذا يوم للتجول بلا خطة، فقط قررت ألَّا أنزل في محطة نزلت فيها من قبل.

أصعد إلى سطح الأرض، يبدو أنني أتلقى مكافأة خاصة للتلقائية.. ميدان فسيح، في الوسط دائرة واسعة، أرضها مزروعة بزهور ملونة منسّقة تنسيقًا بديعًا، ومن وسط الزهور يبزغ تمثال جميل لشاب وشابة يرفعان أيديهما معًا، وتنطلق عيونهما معًا إلى الأمام وإلى أعلى.

تدور عيني في الميدان، أرى كتلة خضراء قادمة من اليسار، تقترب فتتضح معالمها، إنها فصيلة من الجنود، تسير بعسكرية منضبطة، وعندما نقترب تتحول من كتلة إلى وجوه عديدة، أنظر اليها فأرى شبابًا في حدود العشرين من العمر، جاد الملامح، والشفاه منتظمة في نشيد يتعالى إيقاعه وارتفاعه الحماسي وهو يقترب، يتوقف المارة على الرصيف، تتابع أنظارهم المشهد، وأرى على شفاه بعضهم نفس النشيد.

تستمر الفصيلة العسكرية في طريقها، تعبر الطريق إلى الجانب الآخر من الميدان، تقترب من بوابة على جانبيها برجا حراسة، تخترق سورًا طويلًا وعاليًا، ولا يبين شيء من الداخل إلا سارية عالية، يرفرف فوقها العلم الأحمر.

أسير في الاتجاه المعاكس.. رصيف عريض، وكل بضعة عشرات من

الأمتار تمثال برونزي، هذا لمصفف شعر يمسك بمشط ومقص، وبعده حمّال يدفع عربة يد صغيرة، ثم فلاحة تضم حزمة من المزروعات، وبعدها عامل منجم، ثم مدرّسة تمسك بكتاب، وطبيب تلتف السماعة الطبية حول عنقه.

تماثيل الشوارع بهجة ومعنى وروح جمال تشعُّ على كل من يعبر الطريق.

طال الرصيف، لكني مستمتع بالتماثيل التي تتوالى، وبينما أفكر في العودة إلى محطة المترو للذهاب إلى مكان آخر، وجدت بوابة مرسومًا عليها تنين ورُخّ، ثنائي الأساطير الصينية، يقفان حارسين على الحديقة التي لم يستطع بصري أن يدرك آخرها.

* * *

مماشٍ متعرجة وسط أحواض من الزهور، ثم ساحة واسعة ملأها الأطفال بدراجاتهم وزلّاجاتهم وضحكاتهم، ثم ممر مغطّى، سقفه وأعمدته عليها رسوم لمناظر طبيعية.

وفي حدائق بكين، إحساس بالبهجة والدعة والارتماء في حضن الطبيعة.

قرصة جوع، تدفعني للبحث عن كشك للطعام، أرى واحدًا، فأنتظم في الطابور، يحين دوري، فأطلب بيتزا صغيرة، آخذها وأرى منطقة مزروعة بأشجار كثيفة الظلال، أستند بظهري إلى جذع شجرة، أمدد ساقي أمامي، أحمّل ثقلهما على الأرض، أتلذذ بالبيتزا وأسترخي.

مشيت في هذه الرحلة عشرات الكيلو مترات.

أعشق المشي وأحس أنه ما يمنحني التذوق والاحتكاك القريب بما أمر به، يعطيني الإيقاع المناسب الذي أستطيع أن أضبطه كما أريد، لأرى وأتأمل وأختزن ما تراه عيناي وما تلتقطه أذناي وما أشمّه فيعلق بروحي، وما أحسه من حرارة أو نسيم بارد أو قطرات مطر، وقد انطلقت قدماي في بكين الواسعة.

ومن أجل الانطلاق، تحتاج القدمان لاستراحات، وأنا الآن في استراحة، أستند إلى الشجرة الطيبة، ألتهم البيتزا وألتقط مكعبات الأناناس الباقية، فتسري الراحة والطاقة في عروقي.

بالقرب مني وفي ظل شجرة مثل التي أستند إليها، كان المشهد يُعَدُّ لاستقبال عروسين، كاميرا كبيرة والمصور يُجري بعض الاختبارات، ومساعدان له يضبطان عواكس الضوء، أما العروسان فواقفان ينتظران إعداد المكان ومعهما مجموعة صغيرة من الأصدقاء والصديقات.

تم إعداد المكان، فتقدم العروسان، المصور يصدر تعليماته، فيميلان برأسيهما ويقتربان.. لقطة، تجلس العروس ويحتضن العريس ذراعيها.. لقطة، يجلسان ظهرًا لظهر.. لقطة.

قادتني الظروف في القاهرة لزيارات متعددة لأسر كورية، وكنت ألحظ أن صور الزفاف المتعددة والموجودة دائمًا في مكان بارز في المنزل، ليست في مكان مغلق، بل دائمًا وسط الطبيعة، الإحساس بالطبيعة ومحبتها واحترامها والرغبة في التآلف معها جزء هام من ثقافة هذا الجزء من العالم، يشترك فيه الكوريون والصينيون وغيرهم من شعوب شرق آسيا.

قبل سفري لبكين، قال لي صديق عائد من هناك:

- على فكرة، نسبة الجمال في الصين مرتفعة!

تصورت أنه يمزح، لكني الآن أكرر قوله:

- على فكرة، نسبة الجمال في الصين مرتفعة.

هذه حقيقة، لكنها حقيقة تحتاج لشرح وتفصيل، فمقاييس الجمال تختلف، وتذوق الجمال يختلف.

الجمال الصيني ليس لامعًا وليس برّاقًا وليس ملونًا وليس مقتحِمًا.

الجمال الصيني فيه لمسة رقّة وغموض وعذوبة وتسلل.. إذا كانت هذه مقاييسك، فسترى الجمال الصيني، وإذا لم تكن، فلن ترى ما أحدثك عنه.

* * *

دقّات منتظمة تتسلل إلى سمعي المسترخي تحت الأشجار، كأن قلبًا كبيرًا يخفق، تشرئبُّ أذني ويصبح إيقاع القلب الكبير هو إيقاع قلبي.. أنجذب لمصدر الصوت، أقترب فيعلو، يسرع الإيقاع فتسرع خطواتي، ويهدأ الإيقاع فألتقط أنفاسي.

أقترب أكثر فأصبح في الساحة الواسعة، حبّة من سلسلة دائرية كبيرة، ملتفّة حول قارعي الطبول، طبول صغيرة معلقة في رقبة قارعيها، وطبول ضخمة تقرعها أذرع مفتولة العضلات.

لدقّات الطبول صدًى كبيرٌ في الوجدان الصيني، بعض الشعوب ترتبط عندها دقّات الطبول بحركة الجسد والرقص والطقوس الفلكلورية، وشعوب أخرى تخطو إلى الحروب بحماس تحت وقع

دقّات الطبول، أما في الصين فدقّات الطبول هي دقّات الزمن.

في قلب بكين القديمة، زرت «برج الطبول»، برج مرتفع، وصلت إلى قمته عبر سلالم كثيرة، صعدتها قبلي ملايين الأقدام عبر القرون.

في داخل البرج طبول مثل التي أراها الآن في هذه الساحة المفروشة بالعشب الأخضر المبهج، تلك الطبول كانت ساعة أهل بكين، تدق بين الحين والآخر، فيعلم أهل المدينة أن الشمس تشرق، أو أنه منتصف النهار، أو أننا تخطينا منتصف الليل بساعتين، إنها «بيج بن» بكين.

* * *

سكنت الطبول، انفضت سلسلة الناس المتحلقين حولها.. وجدت نفسي تلقائيًّا أنظر لساعتي، الثالثة والنصف عصرًا.

في الساحة العشبية الخضراء، وجدت طريقًا تحيط به أحواض زهور برتقالية وصفراء ووردية، اقتربت منها، يا لَحظِّي الجميل!، إنها زهور التيوليب، رأيتها من قبل في صور فأَسَرَتْني رشاقتها وكبرياؤها، لكن أن تراها حولك وبهذه الكثافة وعلى امتداد البصر، فلْتنعمْ عيناي بهذا الجمال الفريد ولْتَتشربْهُ روحي.

ينفتح ممر التيوليب على ساحة مفروشة بالحصى الصغير، وفي وسطها نافورة يعلو فيها الماء ثم يتساقط رذاذًا على تماثيل لجياد متألقة بالقوة والجمال.

أقترب من النافورة فيرطبني الرذاذ المتناثر في الهواء، أغمض عيني وأتلذذ بنقاط الماء على وجهي وشعري في عصر يوم ربيعي في حديقة بكينية لا أعرف اسمها ولا موقعها على الخريطة.

أفتح عيني، ليست جياد النافورة هي الجياد الوحيدة في الساحة، ففي كل ركن من أركانها جواد واقف في رشاقة، يتطلع بترفع وكبرياء

نحن في عام الحصان، التقويم الصيني (و له أصول مغولية) يتألف من دورة زمنية من اثني عشر عامًا، كل منها باسم أحد الحيوانات، والحيوانات هى:

الفأر – الثور – النمر – الأرنب – التنين أو السمكة – الأفعى – الحصان – الخروف – القرد – الدجاجة – الكلب – الخنزير.

وتقول الأسطورة القديمة إن هذه الحيوانات ظهرت في موكب سماوي لتنظيم تسمية الأعوام بأسمائها، في الموكب كان الجَمل في المقدمة، لكن الفأر الماكر نجح في الزحف وتخطًّى الجمل وسار في مقدمة الموكب، فبدأت به الدورة الزمنية، واختفى الجمل من التقويم بعد ذلك، ربما خِزْيًا مما حدث له – وهو الكبير المُهاب – من مكر هذا الحيوان الضئيل!

وإذا كان الحصان يمثل القوة والنشاط والعمل بالنسبة لكل إنسان، ففي شكله ونظرته وحركته وعلاقته بالبشر هذه المعاني، فظني أن له معاني أخرى إضافية في الوجدان الصيني، فالحصان المغولي هو الآلة الحربية، التي على ظهرها استطاع هذا العِرْقُ الذي عاش زمنًا طويلًا في بلاده النائية شمال الصين، أن يغزو العالم القديم كله، في القرن الثالث عشر، فطرق أبواب أوروبا واحتلً شرق المتوسط، وانطلق جنوبًا ليستولي على الأراضي الصينية ويهزم الإمبراطورية العريقة.

وفي ذلك الوقت، وبسبب هذا الغزو المغولي الكاسح، ازدهرت بكين، وأصبحت مركزًا جديدًا للإمبراطورية الصينية.

قبلها ولآلاف السنين، كانت بكين مجرد مدينة شمالية صغيرة، تبعد حوالي ألف كيلو متر عن قلب الإمبراطورية التي نشأت وازدهرت حول نهر اليانجتسي، وكانت أهمية بكين الوحيدة أنها خط المواجهة بين شعب الصين الأصلي، رعايا الإمبراطورية العريقة، وبين الشعوب الشمالية التي تميل للبداوة، ومن هنا نشأت فكرة بناء السور العظيم شمال هذه المدينة الحدودية، ليكون خطًا دفاعيًا ضد هؤلاء الرعاة الرُّحَّل المتنقلين بخيامهم وجيادهم.

وعندما حدث الإعصار المغولي في القرن الثالث عشر، أصبح منطقيًا أن تكون بكين هي قاعدة حكمه في الصين، ليكون قريبًا من أراضيه الأصلية في الشمال، وبدأ ظهور بكين كعاصمة للإمبراطورية، ثم استمرّت في التطور والازدهار واكتساب المكانة في العصور التالية وحتى الآن.

لهذا فهذه المدينة التي أجوب شوارعها، وأرى ملامح تاريخها في مبانيها، ليست صينية خالصة بالمنظور التاريخي الممتد، ففيها ملامح مغولية لا تنتمي لتاريخ الصين القديم، أما الصين الأصلية فمركزها يبعد حوالي ألف كيلو متر إلى الجنوب، فهل سأحتاج لرحلة أخرى لأرى أعماقًا أكبر وأكثر تعبيرًا عن الروح الصينية؟

* * *

هذا مكان لتجديد النشاط.. عدة أكشاك للمرطبات والآيس كريم والفشار والمأكولات الخفيفة، وأيضًا دورة مياه.. من مزايا بكين، أنك في أي ميدان، في الشارع، في المزارات السياحية، لن تحتاج إلا لدقائق معدودة للوصول إلى دورة مياه، وهي غالبًا ما يمكن وصف مستوى نظافتها بالجيد أوالجيد جدًا، وهي دائمًا بالمجان.

خرجت من دورة المياه، اشتريت كيسًا من الشيبسي وعلبة من عصير البرتقال.

أتسكَّع.. ما أجمل وقع الكلمة على أذن من لا تسعفه الظروف للتسكُّع، لهذا أكررها، لأسعد بها ولتمتص روحي رحيق هذه الساعات البديعة:

أنا أتسكّع.. أنا أتسكّع!!

أصل إلى مجموعة من الأكشاك موحدة الشكل، السقف الصيني المائل برشاقة من سيقان البامبو المتراصة المزخرفة بتدريجات اللونين الأزرق والأخضر، الجوانب باللون الأحمر الطوبي، كتابة بالأصفر اللامع على الواجهة الأمامية، ويتدلى من السقف كرات حمراء لها شرائط مذهبة.

هذه أكشاك للفنون الصينية والهدايا التذكارية.. سوق صغيرة، قد لا تكون معروضاتها عالية القيمة من الناحية الفنية، لكن -شأن تلك الأماكن- التجول فيها ممتع، فرؤية معالم بكين على الأطباق والحقائب والأكواب لطيفة، وشراء بعض التذكارات والهدايا بأسعار منخفضة سبب للسعادة.

جذبني كشك يعرض لوحات فنية، رسم بالأسلوب الصيني التقليدي الذي أحببته ومالت نفسي إليه من زمن بعيد.

حاولت على مدار عمري تذوق فنون الشعوب المختلفة، ففشلت حينًا ونجحت حينًا، وكان مما فشلت فيه أن أتذوق الموسيقى والرقص الصيني، وكان مما نجحت فيه أن أتذوق وأحب الرسم الصيني.

الكشك ملء باللوحات، تختلف مشاهدها، لكن كلها فيها السمات

التي أحببتها في الرسم الصيني: مشاهد الطبيعة، زهور، أشجار، جبال، أنهار، شلالات، سحب، قد يوجد في بعضها بشر، لكنهم – إن وجدوا – ليسوا هم أبطال اللوحة.

اقتصاد في التلوين، ربما تقتصر ألوان لوحة كبيرة على لونين أو ثلاثة، ولا استخدام لألوان صارخة، بل إن كثيرًا من اللوحات هي عبارة عن تدرجات من اللون الأسود وصولًا إلى الرمادي الخفيف (الصينيون هم ملوك استخدام الحبر الأسود، أَلَسْنا نطلق عليه الحبر الشيني، أي الصيني؟).

الفراغات في اللوحة تحتل مساحة كبيرة ولها دور كبير، فكأن الفراغ مرسوم، وكأن الرسم يتنفس في الفراغ الذي حوله.

وفي الجانب كلمات صينية لا أدري معانيها، لكن النقوش الغامضة بتشكيلها الفني الجميل، جزء مما تبدعه ريشة الفنان.. اشتريت لوحتين وتأبَّطْتُهما سعيدًا.

* * *

بدأت بشائر غروب الشمس، الحرارة والإضاءة تخفت، وتكتسب الطبيعة لونًا دافئًا حنونًا.

سور من أشجار البرقوق، في وسطه بوابة، أقترب منها، فأجد مكتوبًا عليها بالإنجليزية: Garden of Hemogeneous Interests. هل يمكن أن أترجمها: حديقة الاهتمامات المتجانسة؟

في جولاتي رأيت تلك النوعية من الأسماء كثيرًا، ميدان السلام السماوي، بوابة الانسجام الأعلى، قاعة الخلود الكبير، جناح البريق

البعيد، ممر الظلال البهيجة، قاعة المباهج العليا، قارب الشفافية والسلام، ممر النقاء القلبي.

يبدو أن عند الصينيين اهتمامًا خاصًا بإطلاق مثل تلك الأسماء المُوحِية بالحكمة والغموض والبحث عن القيم العليا.

دخلت إلى حديقة الاهتمامات المتجانسة.

....

....

....

خرجت من حديقة الاهتمامات المتجانسة.

ماذا حدث في هذا الوقت الذي لا أدري هل كان بضع دقائق أم امتد لساعات؟

حقًا لا أدري.. فأنا لا أدري أين ذهبتْ -وقتها- روحي، عندما دخلت فوجدت نفسي أمام بحيرة صغيرة، محاطة بأشجار تتدلى أغصانها وأوراقها فتلامس ماءها، وأصوات طيور تصل إليّ لكنني لا أراها، هي فقط الصوت الوحيد في المكان، ولم أرَ بشرًا.

هل شردت؟ هل غبت عن الوعى؟ هل انطلقت روحي وسبحت بعيدا؟ حقًا لا أدرى!

لكن ما بقي، وما استمر، وما أظن أنه سيستمر حتى آخر لحظات عمري، هو إحساس غامض لكنه شامل، بالسعادة، بالرضا، بالأمان، بـ....

عذرًا.. فهناك أشياء يستحيل صياغتها في كلمات.

* * *

أجلس في المترو عائدًا إلى الفندق، جسدي ثقيل منهك وروحي خفيفة متألقة.

كان يومًا جميلًا، بل كان أجمل أيام الرحلة الجميلة، الحمد لله.. ختامه مسك.

الفصل التاسع

وداعًا بكين

التاكسي على طريق المطار، وأنا أنظر من خلال الزجاج الخلفي، للمدينة التي بدأت ملامحها تختفي، ولم يعد باقيًا منها إلا أضواء بعيدة، وإلا طريق يصل بي إلى طائرة العودة.

وداعًا بكين!

هذه المدينة التي كانت قبل أسبوعين مجرد عنوان لمعالم غامضة، والتي أصبحت الآن عنوانًا يستدعي مشاهد وأوقاتًا ومشاعر وأسئلة، تزدحم بها روحي وعقلي.

تجربتي البكينية وضعت بصماتها بقوة في أعماق روحي وعقلي معًا، فقد كانت روحي تتلقف الألوان والأصوات والروائح ونسمات الهواء، ومشاهد الأماكن ومشاهد الناس في الأماكن، سيلٌ تحاول استيعابه والإحساس المتعمق به، وتدفع بعشرات الأسئلة الصغرى والكبرى إلى عقلي، ليتعلّم ويفكر ويحتار ويحاول الوصول إلى الإجابات.

تجربة أظن أنها ستعيش معي وسأعيش معها طويلًا.

* * *

توقف التاكسي، أدخل إلى المبنى، أقف أمام الشاشة الكبيرة، أبحث عن رحلة مصر للطيران المتجهة إلى القاهرة.

طابور الحقائب معظمه من الصينيين، كما كانت رحلة الحضور إلى هنا، أترك حقائبي على سير سيصل بها إلى بطن الطائرة المتخم، أنظر للّافتات والإرشادات، طريق فسيح إلى مكاتب جوازات السفر وصالات الانتظار.

دقة وانضباط وصرامة في إجراءات التفتيش التي تتكرر عدة مرات، مجرد لحظات أمام موظف الجوازات، صوت ختم المغادرة على جواز السفر يعلن انتهاء زيارتي لبكين رسميًّا.

لم أستطع طول عمري أن أتخلى عن عادة الوصول مبكرًا جدًّا قبل موعد السفر، ما زال أمامي أكثر من ثلاث ساعات على موعد إقلاع الطائرة.

***

ردهات طويلة، صالات فسيحة، كافيتريات، دورات مياه، ثلاجات للمشروبات الباردة، وماكينات للمشروبات الساخنة، وشاشات ولوحات إرشادية، وقليل من البشر في مطار بكين عاصمة جمهورية الصين.

قبل حضوري، كنت أتصور أن أحد مشاكلي أنني سأكون محشورًا وسط جموع من البشر في كل مكان، الشارع والمواصلات والمزارات السياحية، وأنني سأقف في طوابير طويلة طويلة أمام شبابيك التذاكر وبوابات الدخول لأي مكان أود زيارته، ولكن أولى مفاجآت بكين السارة لي، كانت أنني وجدت عكس ذلك، قطعًا استمتعتُ بهذا وتساءلت عن السر وراءه في مدينة تعدادها نحو أربع وعشرين مليونًا من البشر،

ومساحتها مثل مساحة القاهرة.

وأعتقد أن المفتاح الأهم وراء هذا البراح، هو وجود شبكة هائلة من المواصلات العامة.

ففي بكين ثلاثة عشر خطًا لمترو الأنفاق، والمترو يتقاطر كل ثلاث دقائق، شرايين ممتدة تحت الأرض يتنقل خلالها ملايين الناس، دون ضغط على الشوارع، ويتقاطع مع هذه الشبكة من خطوط مترو الأنفاق، شبكة أخرى من الأتوبيسات التي تنقل ملايين أخرى، وحول المدينة تدور خمس طرق دائرية سريعة، تنقلك بعيدًا عن قلب المدينة وتتفادى تقاطعاتها.

والشوارع متسعة ومنسابة، فليس هناك معوقات في الطريق إلا إشارات المرور، وبالتاكيد ليس هناك إشغالات من أي نوع، وعبور المشاة من مناطق محددة.

وتصميم الأماكن العامة مجهز للأعداد الغفيرة، فمحطات المترو ردهاتها الداخلية طويلة وعريضة، وأرصفة الشوارع متسعة، وتذكرت أنني عندما أردت شراء تذكرتي قطار لتيانجين، وقفت في طابور قصير أمام الشباك رقم 54 في محطة قطارات بكين، نعم هناك أكثر من 54 شباكًا لشراء التذاكر، فهل يمكن معها أن يحدث تكدس مهما كانت أعداد المسافرين؟

وأعتقد أن وراء هذه البنية التحتية القوية والناجحة، إدارة تتميز بحسن التخطيط وكفاءة التنفيذ ودقة المتابعة وإرادة التطوير.

* * *

أتمشى في المطار، أعرف أن طائرتي ستكون أمام البوابة رقم 21، لكني أسير في اتجاه البوابة رقم 36، ردهة طويلة في وسطها سير متحرك، لكني أفضّل السير بجوار الزجاج الذي يفصل الردهة عن أرض المطار.

طائرة تهبط وتقترب والعمال يثبّتون الأنبوب الذي سيتدفق منه المسافرون المتعجّلون الآن لمغادرة الطائرة.

طائرة أخرى تتسارع على الممر البعيد ثم تبدأ في مغادرة الأرض، منطلقة إلى وجهة لا أدريها، قد تكون نيويورك أو دلهي أو روما أو أديس أبابا.

هل يمكن لأحد أن يتخذ قرارًا بإلغاء المطار وإحراق الطائرات؟!!

سؤال غريب، لكن في تاريخ الصين قرار مشابه، قرار غامض الدوافع يشبه ذلك، أثّر على مستقبلها، بل مستقبل البشرية.

في سنة 1400 وتحت حكم أسرة منج، توسّع أحد الأباطرة في بناء أسطول، قيل إن عدد قطعه وصل إلى نحو 1500 قطعة.

وفي سنة 1424 مات هذا الإمبراطور وحدثت قلاقل في البلاد، وقام إمبراطور لاحق بإصدار هذا القرار التاريخي الغريب: إحراق كل الأسطول!!

تُرى كيف كان سيصبح تاريخ العالم لو أن هذه القوة البحرية الصينية، التي كانت الأكبر وقتها، استمرت في التوسع والانتشار؟ ولو كانت بعض وحداتها هي التي اكتشفت الأمريكتين؟

* * *

التأرجح بين الانفتاح على العالم والتفاعل الواسع معه، وبين وجود سور من قيود التفاعل حول الإمبراطورية الكبيرة، بحيث يتم التفاعل من خلال قنوات محددة محكومة، كان وما زال ملمحًا هامًّا في التاريخ الصيني.

وفي معظم فترات التاريخ، اختارت الصين الاختيار الأول، وكان لها أسبابها المنطقية.

إمبراطورية كبيرة تعادل مساحةُ أراضيها مساحةَ أوروبا، ويبلغ عدد سكانها أكثر من عدد سكان أوروبا، وفيها من الموارد الداخلية ما يُغنيها، ونظام حكمها اعتمد على مركزية شديدة البأس، وتتحدث بلغة يستغربها الآخرون، وتراثها الثقافي بعيد عن تراث معظم الممالك القريبة والبعيدة.

لهذا كان الميل الأكبر هو العيش في هذه الجزيرة الشاسعة، وإن حدث توسع وتفاعل فهو على الحدود المباشرة سعيًا وراء مزيد من القوة وتأمينًا لاستقرار الجزيرة الصينية.

ولكن لأن النشاط التجاري وعوائده مغرية دائمًا، فقد كان التبادل التجاري يخترق هذه التخوفات والمحاذير، وينشط كثيرًا أحيانًا وينشط قليلًا أحيانًا أخرى.

* * *

القضية والاختيار التاريخي ما زال مطروحًا، لكن الفرق أن عالم القرن الحادي والعشرين ليس هو عالم القرن الثالث أو التاسع أو الرابع عشر أو حتى العشرين.

عالم القرن الحادي والعشرين يمكن وصفه أنه أصبح مقتحمًا وعابرًا للحدود، وأصبح له في ذلك وسائله المتعددة.

ولهذا أصبحت مساحة الاختيار بين الانفتاح والانغلاق أضيق، حتى بالنسبة للصين الشاسعة التي يعادل عدد سكانها سدس سكان العالم.

وأظن أن الصين -الدولة والشعب- على أعتاب اختيار تاريخي، سيكون مؤثرًا على مستقبل العالم.

الصين التجارية والصناعية حاضرة الآن -وبقوة- على أرفف المحال التجارية وفي عنابر المصانع في كل مكان في العالم.

والصين الرسمية ترحب بهذا وتوسّع هذه الأبواب، لكن بحذر شديد، فالاختيار شديد الصعوبة والخطورة، وقد يرى البعض أن الانطلاق الواسع السريع ستكون نتيجته اكتساح الصين للعالم، وقد يرى البعض الآخر أن هذا الانطلاق ستكون نتيجته اكتساح العالم للصين.

قد يستمر هذا التفاعل الحذر المضبوط، فيصبح المستقبل القريب للصين الحالية أفقه مجرد تنمية وتقوية اقتصاد دولة كبيرة، تؤثر بفاعلية في الاقتصاد العالمي وتستفيد بعوائد هذا التأثير، وكأننا أمام نسخة أكبر من التجربة الاقتصادية اليابانية.. وفقط.

أو أن يكون هذا الحذر مرحلة، يتلوها انطلاق، ربما ليس في وقت قريب، وتجد الصين حلولًا لعوائق تفاعلها مع العالم الواسع، فتصير قيادة حقيقية للمستقبل.

العالم يترقب القرارات الصينية.

العالم يراقب التجربة الصينية.

التجربة التي ترفع فيها الدولة الصينية شعار (الاشتراكية.. بخصائص صينية)، ويمكن أن يراها البعض (الرأسمالية.. بخصائص صينية)، ويراها العالم بعيدًا عن الأسماء والشعارات (التنمية على الطريقة الصينية).

فالعالم الذي يتململ من نمط الاقتصاد العالمي الحالي، ومن نمط التنمية الذي تم فرضه على بلدان العالم المختلفة، بصرف النظر عن تركيبتها ونوعية مشاكلها، يراقب التجربة الصينية في التنمية.

فأن تنجح دولة في التنمية وبناء داخلها وتحسين مستوى معيشة شعبها، بأسلوب مختلف، فهذا يفتح باب الأمل لعشرات الدول المتعثرة.

* * *

أتبع الإرشادات وأتجه نحو البوابة رقم 21، عندما أصل أجد نحو عشر مسافرين، بعضهم جالس يتململ، واثنان منهما احتلا صف الكراسي المتراصة واستسلما للنوم.

وعلى الشاشة فوق الباب الذي سنعبره إلى الأنبوب إلى الطائرة، على جانبها شعار مصر للطيران، ورقم الرحلة 956، وموعد الإقلاع 00.25، خمسة وعشرون دقيقة بعد منتصف الليل.

أنظر لساعتي فأجدها تقترب من العاشرة والنصف.. أتجه إلى الكافيتريا، روادها نصفهم صينيون والنصف الآخر تتوزع ملامحه بين الملامح الهندية والملامح الغربية.

أمامي رجل في نحو الخمسين، جواز سفره الأمريكي موضوع على المنضدة، وجهه الأبيض ملء بالنمش، نظارة طبية معلقة على طرف

أنفه، عيناه مثبتتان على كتاب أبيض اللون، الغلاف نصفه الأسفل صورة لرجل وبجواره لافتة طريق مكتوب عليها: شنغهاي 4825 كيلو مترًا، أما نصفه الأعلى فمكتوب عليه عنوانه بخط عريض: China Road.

قلت لنفسي وأنا أخرج كتاب "طريق الصين" من حقيبتي: يا لَها من مصادفة موحية بالمعاني! مصري وأمريكي يجلسان متقابلين في كافيتريا مطار بكين ويقرآن نفس الكتاب!

هذا تلخيص لعالم اليوم، مصري وصل إلى بكين عابرًا آسيا كلها، وأمريكي وصل أيضًا إلى الصين عابرًا المحيط الهادي، يقرآن نفس الكتاب لصحفي إنجليزي، أحدهما يقرؤه بالانجليزية والآخر يقرؤه مترجمًا إلى العربية، والموضوع رحلة على أرض الصين تمتد لمسافة 4825 كيلو مترًا، بحثًا عن دخائل الصين وطريقها كقوة صاعدة نحو المستقبل.

أحدهما جاء ليشاهد ويعرف ويفهم، والآخر ربما جاء بحثًا عن صفقة تتفرع عنها أعمال ووظائف وحركة أموال عبر العالم، والاثنان يتساءلان عن طريق الصين الذي يقفان الآن في إحدى محطاته.

يجلسان متقابلين في كافيتريا مطار بكين، وبعد ساعات سيكون أحدهما عائدًا إلى القاهرة، والثاني عائدًا ربما إلى كاليفورنيا.

***

من موقعي في الكافيتريا، تمر أمامي عشرات الوجوه، وتمر بذاكرتي مئات الوجوه التي مرّت أمامي خلال رحلتي، وحاولت أن أتصور حكايتها مع الحياة.

عندما أنظر لوجوه الصينيين الآن، أستطيع أن أرى أشياء لم أكن أستطيع أن أراها قبل أسبوعين، وتذكرت تصفُّحي لوجوه المسافرين في مطار القاهرة قبل رحلتي إلى بكين.

لو أن أحدًا قال لي قبل السفر إنني سأحس بألفة مع الصينيين، لتعجبت لما يقول، فكل ما في الصينيين وأيضًا ما في الصين - ظاهريًا- غريب.

لماذا إذن أحس، ليس فقط بالتعود، بل بالألفة ونوع من الارتياح؟

أعتقد أنه - رغم كل شيء - فإن شيئًا مشتركًا يجمعنا، فخلف الوجه الصيني بملامحه المختلفة، وخلف الحاجز الذي يحيط به نفسه عند تعامله مع الأغراب، أرى ملامح إنسان العالم الثالث الذي أنتمي إليه.

رغم كل ما يبدو من اختلافات - حتى في تفاصيل ظروف الحياة - أرى نفس السعي على الرزق، وانشغال البال، وعدم اليقين بخصوص المستقبل، ومحاولة تجميل الحياة التي تبخل ببحبوحة العيش.

كنت، وأظن معظم الناس كذلك، ننظر لملامح الصينيين باستسهال، فنظن أنهم نسخ مكررة، ونتصور باستسهال أنهم مجرد تروس في آلة ضخمة لإنتاج السلع.

ظاهريًا، ليس معتادًا أن ترى الصيني منفعلًا، فلديهم تراث طويل يعمل على تجنب انفلات التعبير عن التناقضات الداخلية في الفرد وتوتر علاقته بالمجتمع.

لكنهم بشر مثل كل البشر، بل إنهم بشر تحت ضغوط تغيرات عميقة وسريعة حولهم، لا بد أن تطرح أسئلة كثيرة وحيرة واضطرابًا.

هؤلاء أبناء أمة عاشت لآلاف السنين، في درجة استقرار كبير لقيمها حتى مع تغير أحوالها ظاهريًا، ثم جاء القرنان الأخيران بتقلبات شديدة ومناقضة للتراث الطويل.

فقبل منتصف القرن التاسع عشر، هجمت الدول الاستعمارية بأفيونها وأساطيلها وساستها، وأوقعت هزيمة منكرة بأمة مستقرة، وبدأ قرن المذلّة، ولنا أن نتخيل مدى اضطراب القيم والوجدان لأجيال متعاقبة.

ثم جاء ماو ورفاقه في منتصف القرن العشرين، وبدأ عصر جديد له قيم مختلفة، عصر حرص على تحطيم منظومة القيم القديمة وبيان مساوئها، ورفع شعارات مختلفة تمامًا.

وبعد ثلاثين عامًا فقط من الحكم بالطريقة الماوية، تغيّرت الشعارات، ومما زاد من الاضطراب أن هذا التغيّر قاده أصحاب الشعارات القديمة.

ويضاف إلى ذلك، أن الطريق الجديد تطلّب احتكاكًا بالعالم الواسع، أدى لمزيد من التساؤلات ومزيد من الضغوط على القيم الصينية الداخلية المتوارثة.

أي اضطراب وفوران فكري تحت السطح الذي نراه متحركًا فقط بالنشاط الاقتصادي؟

ما زالت الصين تبحث بقلق عن انتقال سلس إلى مرحلة جديدة، سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا.

* * *

تُرى هل استطعت أن أجد إجابات أرضي عنها عن تساؤلاتي عما تحت السطح؟

اجتهدت، أتعبت قدميَّ بالسير في الشوارع والأزقّة الخلفية، تفحصت وجوه الناس وحركاتهم، حاولت أن ألتقط ما بين السطور، لكن هناك حواجز وحواجز.

هناك حاجز اللغة، هذه اللغة اللوغاريتمية، بشكلها المبهم ووقع أصواتها الغريب.

فإذا تجاوزتها ببعض الإنجليزية، فستجدها إنجليزية محدودة من أجل أغراض العمل.

وإذا أبديت رغبة في التواصل مع أحد لمعرفة ما بداخله، فستجد أن هناك درجة كبيرة من التوجس والتردد في التعبيرعما في الداخل، تعوق معرفتهم كبشر، وبالتأكيد تعوق معرفتهم كمواطنين في دولة.

وإذا سألت نفسك أسئلة أكثر وأكثر حول مدى تمثيل ما تراه في بكين لأحوال فلاح عجوز يعيش في قرية منعزلة على بعد مئات الكيلو مترات، أو عن مشاعر مواطن من إقليم التبت، أو عن شاب يعمل في مصنع في قلب الصين يمد العالم بالسلع الرخيصة ويمد العاصمة -التي تتجول فيها- بالازدهار، فستجد أن إحساسك بإدراك الحقائق يتضاءل ويتضاءل.

لكنها متعة الرغبة في المعرفة، تسعدك الأسئلة على صعوبتها، فتجتهد، وتزهو بفكرة يصل إليها عقلك وتراها مفتاحًا للإجابة.

* * *

الساعة الآن تتخطى الحادية عشرة مساءً، والساعة الآن في القاهرة هي الخامسة عصرًا. توقيت بكين يسبق توقيت القاهرة بست ساعات، فهل تسبق بكين القاهرة بست ساعات فقط؟

آه.. ها أنا أقع في المحظور.

كانت تناوشني طول الوقت فكرة المقارنة بين ما أراه من أحوال الصين وبين أحوال مصر، وبدأت هذه المقارنة تفسد عليَّ استمتاعي بالرحلة، فهربت منها ونحَّيتها جانبًا، لكن يبدو أنه لا بد من المقارنة وإن طال الهرب!

وفي المقارنة ما يؤلم كثيرًا، وما يغضب كثيرًا، وما يحبط كثيرًا!!

....

....

حضرات السادة الركاب، هبطت طائرة مصر للطيران، الرحلة رقم 956 في مطار القاهرة، درجة الحرارة خارج الطائرة 25 درجة مئوية، بالنيابة عن قائد الرحلة وطاقم الضيافة أحييكم و...

أهلًا يا قاهرة..

أهلًا يا مصر.

ملحق

قبل سفري وأثناءه وبعد عودتي، كان بجواري مجموعة من الكتب، أردت بها أن أحاول ان أعرف ما وراء ما أراه.

هذه الوجوه وهذه الشوارع وهذه الأبنية، وذلك الأسلوب في التعامل وذلك الأسلوب في التفكير.. ما وراءها؟

وراءها -في حالة الصين- جبل من التراث المتواصل عمره أكثر من 4000 سنة.

أمدتني هذه الكتب ببعض المفاتيح، وأدخلتني جولاتي وعيني وعقلي وروحي وراء بعض الأبواب، لكني متأكد من وجود مفاتيح أكثر تفتح أبوابًا أكثر لفهم أعمق وأشمل.

قائمة قصيرة، أدعو أصدقائي، إذا اهتموا بطرق هذه الأبواب، أن يتخيروا منها ما يناسب نوعية اهتماماتهم.. وأَعِدُهم بمتعة المعرفة:

تاريخ الصين (منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين)

تأليف: هيلدا هوخام، ترجمة أشرف الكيلاني، الناشر: المشروع القومي للترجمة.

هذا الكتاب يتناول تاريخ الصين كله، قديمه وحديثه، فيما يقرب

من 400 صفحة، في بساطة ويسر، وأيضًا بقدرة كبيرة على رؤية تسلسل الأحداث ومدلولاتها، وربط الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية.

أعتقد أن هذا الكتاب أفادني كثيرًا في معرفة التجربة التاريخية الصينية، والتجربة التاريخية هامة في كل مكان، لكنها أكثر أهمية في الصين؛ لأن في التراث والعقيدة الصينية، معرفة الماضي والتواصل معه والبناء فوقه شيء أساسي، فالتاريخ الصيني كأنه نهر طويل ممتد، والماء الذي تراه أو تسبح فيه الآن، هو نفس الماء الذي نبع من مكان بعيد وقد خاض تجربة الزمن، وحتى تعرفه فعليك أن تعرف مسيرته.

الفن الصيني

د. ثروت عكاشة.

هذا المجلد الكبير، هو جزء من السلسلة التي أثرَى بها المثقف الموسوعي ثروت عكاشة المكتبة العربية، متجولًا في معظم الحضارات الإنسانية.

وفي هذا المجلد، يتناول -مصحوبًا بصور رائعة ممتازة الطباعة- الفنونَ الصينية، العمارة، النحت، الرسم، الخط، الموسيقى، الأوبرا، الأدب.

يتناول هذه الفنون جميعًا في تطورها التاريخي، يتناول أمثلة دالة على ما فيها من تميز، ويشرح أسرار الروح الصينية التي أبدعت هذه الفنون.

طريق الصين (رحلة في مستقبل قوة صاعدة)

تأليف: روب جيفورد، الناشر: دار العبيكان.

هذا الكتاب يرصد الحالة الراهنة (وقت كتابته عام 2006)، الصين التي تتغير بسرعة تذهل العالم وتذهل أهلها، ويرصد تفاعل الصينيين العاديين مع هذه التغيرات الحادة. وهو يرصدها أثناء رحلة طويلة قام بها لمسافة 4825 كيلو مترًا، على الطريق الذي يتقاطع مع طريق الحرير القديم، مبتدئًا بشنغهاي (نيويورك الصين) مارًّا بوسطها، مدنها القديمة وقراها وجبالها وبحيراتها وأنهارها، الناس في المزارع وفي الأديرة وفي بيوت الهوى.

يرصدها بعين جريئة، وهو الصحفي الإنجليزي المتقن للغة الصينية منذ شبابه، في رحلة ختامية شاملة، ينهي بها عمله الذي استمر 6 سنوات، كمراسل للإذاعة البريطانية في الصين، كتاب جذّاب ويطرح اسئلة المستقبل.

جبل الروح

تأليف: جاو زينج جيان، الحائز على جائزة نوبل للآداب سنة 2000، ترجمة: لبنى الريدي، الناشر: دار الهلال.

جبل الروح، جبل يقال إنه في منطقة ما في الصين، نُسجت حوله الأساطير والحكايات. يتطلع بطل الرواية للوصول إليه، فيطوف في الصين ويكتشف أعماق روحها، وفي رحلة بحثه واكتشافاته، يكتشف أيضًا روحه وأعماقها.

الفكر الصيني: من كونفوشيوس إلى ماو تسي تونج
تأليف : هـ ج. كريل، ترجمة: عبدالحميد سليم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

في القرن السادس قبل الميلاد، ولد في الصين شخصان، هيمنَا على الفكر الصيني على مدار تاريخه، وما زال تأثيرهما ساريًا في الروح الصينية حتى الآن، وهما كونفوشيوس ولاو تسو، هما وتلاميذهما ومن حاولوا مناصرة أو مناهضة فكرهما، هؤلاء جميعًا هم موضوع هذا الكتاب، الذي يصل بنا إلى ما وتسي تونج، الذي قدّم تصورات فكرية تدعم رؤيته السياسية.

الفكر الشرقي القديم
تأليف: جون كولر، ترجمة: كامل يوسف حسين، الناشر: عالم المعرفة الكويتية، العدد 199.

هذا الكتاب يتناول الفلسفات الصينية، كواحدة من فلسفات الشرق القديم، وما يميزه عن الكتاب السابق أن فيه بابًا مستفيضًا عن الفلسفات البوذية، والبوذية رافد هام للثقافة الصينية، ربما لم تنشأ في أرض صينية، لكنها امتدت للصين منذ زمن بعيد وأصبحت جزءًا في النسيج الثقافي الصيني.

الفيل والتنين: صعود الهند والصين ودلالة ذلك لنا جميعًا
تأليف: روبين ميريديث، ترجمة: شوقي جلال، الناشر: عالم المعرفة الكويتية، العدد 359.

كتاب من وجهة نظر أمريكية، يرصد هذين العملاقين الآسيويين

القادمين لمنافسة الاقتصاد الأمريكي، وتأثير ذلك على بنية الاقتصاد العالمي، ويرصد الاختلاف بين التجربتين الصينية والهندية في التنمية، ويتحدث عن تأثير التنمية على بنية لمجتمع وآفاق هذا التأثير.

Lonely Planet: Beijing city

جزء من سلسلة عالمية للإرشاد السياحي، تغطي تقريبًا معظم مدن ودول العالم.

على صفحات هذا الكتاب وضعتُ خطوطًا وإشارات، هي التي رسمت خططي اليومية في بكين.

كتاب أساسي للزائر، يتحدث بإيجاز عن كل شيء في بكين، ويقدم إرشادات عملية حول طرق الوصول لمكان ما، مواعيده، وثمن تذكرته، وأفضل خطة للتجول فيه لرؤية معالمه. أين تأكل، وأين تشتري، وأين تذهب في حالة الطوارئ الصحية؟ و... و...

إرشادات وخرائط وتفاصيل، ستحتاجها لا محالة، وبدونها سيفوتك الكثير.

世界人民大团

هل بداخلي أثر من جدٍّ قديم نشأ فيها وارتحل على طريق الحرير، وتوقف في محطاته حتى وصل إلى مصر فاستقر فيها؟

هل كان هذا الجد البعيد كاتبًا في بلاط ابن السماء، تم تكليفه بنقل رسالة، قادته إلى قصر مملوكي في القاهرة، فوقع في هوى إحدى جميلاته، فزرع شجرة في أرضها، تعمقت جذورها وامتدت فروعها لتصل إلى القرن الحادي والعشرين؟

وأتيت أنا بعد أجيال، لا أعلم بوجود هذا الجد البعيد، حتى هبطت على أرض ميلاده ونشأته، فانبعث بداخلي ما كان مخفيًا؟

المؤلف

Cover Design by: Mohamed Sayed


SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET